سلسلة العقائد
وأسرارها الروحية

تقريب الدين بين أيدي المسلمين

إعجاز
القرآن الكريم

تأليف
وائل محمد عبده حنفي



المقدمة

إن الحمد لله؛ نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

ونصلي ونسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحابته الغر الميامين، وارضَ اللهم عن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد.

فإن القلم يعجز عن الكلام عن القرآن العظيم؛ ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ وذلك لأنه تنزيل من حكيم حميد.

القرآن الكريم آخر حلقات اتصال السماء بالأرض، الكتاب الذي جاء بكل ما فيه خير البشرية في كل زمان ومكان.

الكتاب الذي أنزله الله بالحق وبالحق نزل، الكتاب الذي قصَّ أحسن القصص وأصدق القصص.

الكتاب الذي أخبر عن كثير من الغيبيات منذ أكثر من ألف سنة؛ فحدث كما أخبر .

القرآن الكريم أصح كتاب على وجه الأرض منذ أن خلقها الله تعالى.

الكتاب الذي لم ولن يستطيع أحد أن يعبث به، والذي يستحيل أن تمتد إليه يد التحريف الآثمة اللعينة.

الكتاب الذي من أول حرفٍ فيه يتناسق ويتلاءم مع آخر حرفٍ فيه، وقد زادت آياته على ستة آلاف آية.

الكتاب الذي لا تتناقض فيه آية مع آية أخرى، وقد نزل في أكثر من عشرين عامًا.

الكتاب الذي نزل به مَلَك ذو قدر في ليلة ذات قدر على نبي ذي قدر لأمة ذات قدر.

القرآن ذلك الكتاب العظيم الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[1].

وقال عنه تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2].

وقد تحدى الله به الإنس والجن على أن يأتوا بمثله فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[3].

بل تحدى الله العرب أصحاب الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بمثل أقصر سورة من سوره فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[4].

---

(١) الإسراء: ٩.

(٢) النحل: ١٠٢.

(٣) الإسراء: ٨٨.

(٤) البقرة: ٢٣.

القرآن الذي قال عنه سيد الأولين والآخرين ﷺ: «**كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنتهِ الجن إذ سمعته حتى قالوا: «إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد» من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم**»[1].

القرآن الكريم هو أكثر كتاب عكف عليه العلماء وتناولوه بالشرح والتفسير وإبراز بلاغته وفصاحته وإعجازه في كل عصر ولم تنته عجائبه ولم ينفد عطاؤه.

أخي القارئ:

أتناول في هذا الكتاب المتواضع البسيط تعريفًا بالقرآن ودفاعًا عن بعض الشبه المثارة حوله وأبرز بعض جوانب الإعجاز التي لا تنتهي.

عسى الله أن ينفع به.

أيها القارئ الكريم

ما أحرانا أن نترسم خطا القرآن وأن نسير على هديه.

فهو سفينة النجاة في خِضَم الحياة.

نسأل الله الهداية والتوفيق.

* * *

---

(١) رواه الترمذي .



٨

حول القرآن



الفصل الأول

القرآن

تعريف القرآن

لغة: مصدر مرادف للقراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾[1] ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسمًا للكلام المنزل على النبي ﷺ، وهذا ما نختاره استنادًا إلى موارد اللغة وقوانين الاشتقاق.

واصطلاحًا:هو الكلام الذي نزل به جبريل على الرسول الكريم باللفظ العربي، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المتحدى ببلاغته، المبدوء بالفاتحة والمختوم بسورة الناس.

وهذا التعريف يعد من أفضل التعريفات.

تأثير القرآن

كتاب ربنا جل وعلا كان له- ولا يزال- التأثير القوي الفعال في القلوب، وصدق الله حيث قال عنه: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ

---

(١) سورة القيامة آية: ١٧.

﴿ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾[1]. وقصة عمر بن الخطاب ﷺ مشهورة حينما جاء ليفتك بأخته فلما سمع كلام ربنا خشع قلبه وأسلم لله رب العالمين؛ بل قال المؤرخون: إن الكفار الذين اشتهروا بالعداء للإسلام والصد عنه لم يستطيعوا صرف نفوسهم من حوله: ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ** ﴾[2] ثم يجيئون من قريب ويتسللون لسماع القرآن وذلك لشدة تأثيره في القلوب، ولم لا وهو كلام رب العالمين؟! ولم لا وهو من عند رب القلوب الذي يعلم ما يؤثر في القلوب؟! وما روي عن عتبة حينما بعثه الكفار للرسول ﷺ وكان حلو اللسان وفصيح الكلام فلما قرأ رسول ﷺ من أول سورة السجدة حتى وصل إلى: ﴿ **فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ** ﴾[3] انتفض انتفاضة انخلعت منها نفسه واهتز لها قلبه.. وهناك قال له عثمان بن مظعون: لتعلموا أنه من عند الله.. وكذلك كلمة الوليد بن المغيرة المشهورة عن وصف القرآن: «**إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يُعلى عليه**» فهذه شهادة من كافر يعتز بها القرآن وأهله.

---

(١) سورة الزمر آية: ٢٣.

(٢) سورة فصلت آية: ٢٦.

(٣) سورة فصلت آية: ١٣.

ومهما تكلمنا عن تأثير القرآن في النفوس لا نستطيع أن نوفيه أقل القليل ولكن الحر تكفيه الإشارة، ويكفي قول الله جل وعلا: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[1].

جمع القرآن

مما لا ريب فيه أن القرآن صادفه من الاهتمام ما لم يصادف غيره، وظل الصحابة يحفظون القرآن في صدورهم وفي الرقاع حتى قُبض رسول الله ﷺ، ولما آلت الخلافة إلى أبي بكر ﷺ وارتد من المسلمين طائفة بدأت الفتن تلوح من كل مكان، وبدأ حفاظ القرآن يُقتلون في هذه المعارك ففي هذا الوقت تنبه عمر ﷺ لذلك الخطر واقترح على أبي بكر ﷺ أن يجمع القرآن ورفض أبو بكر أولًا لأن ذلك عمل لم يفعله رسول الله ثم هداه الله لهذا الأمر خاصة بعد معركة اليمامة التي قُتل فيها سبعون، وقيل سبعمائة من حفاظ القرآن، وبينما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يتحدثان إذ دخل عليهما زيد بن ثابت ﷺ فعرضا عليه الأمر فقال: كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ فمازالا يكلمان زيدًا حتى اقتنع بهذه الفكرة- التي مازالت أكبر وأعظم خير - وكلف أبو بكر ﷺ زيدًا بهذه المهمة

---

(١) سورة الإسراء آية: ٨٨.

الشاقة كما يقول: «**والله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن**».

فقام بجمعه من العُسب[1] واللخاف[2] وصدور الرجال، ووجد آخر سورة التوبة مع خزيمة الأنصاري ولم يجدها مع غيره، وهي قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[3] وكان لا يأخذ القرآن إلا بشهادة رجلين إلا هذه الآية السابقة لأن شهادة خزيمة بشهادة رجلين كما ورد عن رسول الله ﷺ.

ثم هناك جمع آخر للقرآن غير هذا الجمع وهو لا يقل قدرًا عن الجمع الأول، وهذا الجمع كان في عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه- فعندما اتسعت فتوحات المسلمين وقد أخذ كل جهة القرآن عن إمام وكل جهة تقرأ بقراءة غير الأخرى وبدأ الخلاف وكادت أن تقوم فتنة عظيمة فلما جاءت معركة أرمينية ومعركة أذربيجان- وبدأ الصحابة يكفر بعضهم بعضًا فجاء حذيفة إلى عثمان يصور لسيدنا عثمان ذلك كله واقترح عليه أن يجمع المسلمين على كلمة واحدة ومصحف واحد فبعث عثمان رضي الله عنه إلى حفصة وكانت عندها الصحف

---

(١) العسب: جمع عسيب وهو طرف الجريد العريض كانوا يكشطون الخوص ويكتبون فيه.

(٢) اللخاف بكسر اللام: جمع لخفة بفتح فسكون، وهي الحجارة الرقيقة.

(٣) سورة التوبة آية: ١٢٨.

فأرسل بالصحف إلى زيد بن ثابت وإلى عبد الله بن الزبير وإلى سعيد بن العاص وإلى عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأمرهم أن ينسخوها صورًا متعددة، وقال لهم: إذا اختلفتم مع زيد في شيء فحكموا فيكم لغة قريش لأنه بها نزل.

نبذة مختصرة عن القراءات الصحيحة

القراءات مذهب من مذاهب النطق في القرآن يذهب به إمام من الأئمة القراء مذهبًا يخالف غيره في النطق بالقرآن الكريم.

وهذه القراءات ترجع في الأصل إلى الأخذ عن رسول الله ﷺ، وكان يقول: «**أنزل القرآن على سبعة أحرف**»[1] وعن رسول الله أخذ كبار الصحابة وفحولهم، واشتهر بالإتقان كثيرون وكان أبرزهم السبعة عثمان وأُبي وعلي وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعري، وعنهم أخذ معظم الصحابة والتابعين المنتشرين في الممالك والأمصار ثم في آخر المائة الأولى تجرد قوم للضبط والدرس والبحث في علوم القرآن.

نبذة عن صفة القرآن

القرآن هو الكلام المبين، والكنز الثمين، والحبل المتين، والبلاغة الباهرة، والآية الظاهرة والحجة القوية، نزل به جبريل الأمين على خير المرسلين مفرقًا

---

(١) رواه أحمد والبزار.

على حسب الأحوال والحوادث، وكان نزوله عيدًا ومجيئه بشرى،تريح قراءته النفوس وتشرح الصدور وتقضي على القلق وتُذهب الهم والغم فيه سعادة العالمين، من استمسك به هُدي إلى الصراط المستقيم ولم يضل أبدًا فعن ابن مسعود ﷺ: «**إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين**»، وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب**»[1].

وهناك فروق بين القرآن وبين الحديث لا مجال للحديث عنها هنا لكن المهم أنهما متفقان في أن مصدرهما السماء وطريقهما جبريل: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ**﴾[2] ومنزلة السنة من القرآن منزلة البيان والإيضاح، والشرح والتفصيل، والتأييد والتصديق، والتطبيق والتفسير، وليس هذا قصورًا ولكن كما يتناول الأستاذ أصل المادة بالبسط والتوضيح والشرح ليتمكن الطلاب من الفهم؛ ولهذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾[3] وقال جل شأنه: ﴿**إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا**﴾[4] فالقرآن

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) سورة النجم آية: ٣-٥.

(٣) سورة النحل آية: ٤٤.

(٤) سورة النساء آية: ١٠٥.

بعضه كلي لا جزئي، ومجمل لا مفصل، وأعجب ما في القرآن من حديث وأغرب ما فيه من وصف وأجمل ما فيه من إبداع وحسن أنك تحشد له ما شئت من الألفاظ وتخلع عليه ما شئت من الصفات وتتألق له على قدر ما تستطيع، وتجهد قلمك في الكتابة، وأسلوبك في الإبداع. ثم تظن أنك بلغت الغاية وأشرفت من القمة، ولكنك تسمع صدى صوت في نفسك كأنها يقول لك: إنك لا تزال في سفح الجبل، والطريق طويل، والقمة عالية، والمهمة صعبة.

لأن روعة بيانه، وسحر ألفاظه، وجمال أسلوبه، وقوة بيانه، وشدة أسره للقلوب، واجتذابه للأفئدة تجعلك تسخر مما كتبت وتهزأ بما سطرت، وصدق الحق جل وعلا: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

إثبات أن القرآن كلام الله

الكلام عن هذا الجانب أمر عظيم حتى لا يرتاب المرتابون في كلام الله جل وعلا فالقرآن عزيز النواحي، فياض المعاني، متشعب الجهات، خصب التطور، رائع التعبير، وقد جعله علماء العقيدة مادة ممتعة في الدلالة على نبوة رسول الله ﷺ، وبرهانًا صادقًا على اصطفاء الله له وتأييده إياه، ورضاه عنه، إلا أنهم أكثروا فيها، وحملوها ما تطيق وما لا تطيق من كل ما يدخل في نطاق العقل وما

---

(١)الحشر: ٢١.

لا يدخل، واعتمدوا في كثير من الأحيان على ما لا يقبله الـذوق؛ فتـارة يـدللون على إثبات القرآن بأنه كلام الله بإخبار القرآن عن الأمور الغيبيـة، وحديثـه عـن الأشياء التـي سـتحدث في المـستقبل البعيـد أو الـزمن الآتي، وهـي وإن كانـت مسلَّمة عند المؤمن مقبولة في نظر المسلم إلا أن الجاحد لهذا الدين المنكـر للقـرآن قد يتهم مثل هذه الناحية أو يدعي أنه أشبه بشعوذة بعض الناس الذين يعيـشون بين أهليهم وعشيرتهم بمثل هذا الأسلوب من الدجل والاحتيـال؛ إذن فإخبـار القرآن بالغيبيات عند المؤمن هي من إثبات أن القرآن كـلام الله ولنـضرب مـثلًا قولـــه تعـــالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾[1] وبالفعل تحقق هذا الكلام، كـذلك روعـة أسلوبه وبلاغته وإشراق ديباجته؛ كذلك أنه تضمن ألوانًا من التشريع لا يمكـن لمصلح اجتماعي بالغًا ما بلغ من العلم والحكمة والفطنة والرأي والعقل والفكـر والسياسة والحزم أن يـأتي بمثلهـا في سـهولتها ووضـوحها ومـسايرتها للفطـرة السليمة ولذلك كانت ذات تأثير فعال في الدفع الثوري الذي انتقـل بـالعرب في أقرب مدة من الزمن إلى حياة كريمة وسلوك حميـد وطمـوح بعيـد وغايـة نبيلـة وعيش سعيد، وقد ظل المسلمون على هذه الألوان كلها يشعرون فيما بينهم وبين أنفسهم أن هذا الدستور الذي يجدونه في ظلاله، وذلك السلوك الذي يتلمسونه فيه، وتلك الأوامر والنواهي التي جاء بها لا يمكن أن تسمو إلى مكانتها دسـاتير

---

(١) الروم: ١.

الشعوب ولا قوانين الأمم وأن القلاقل التي تهز العالم والـزلازل التـي يتـأرجح بحركاتها الناس والأحداث التي تنزعج من أجلها الخليقة السبب الحقيقي فيهـا أنها لم ترتبط به ولم تداوِ عللها بعقاقيره؛ فلهذا هو بلا شـك ولا مريـة كـلام الله؛ كذلك تحديه للعرب وهم أرباب البلاغة والفـصاحة والعقـل فـأعلن عجـزهم أمام الجميع وقال لهم ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾[1] وقال الحق جل وعلا: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾[2] ثم اختتمت الآية فقالـت: ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[3] أي معينًـا يتعـاون بعضهم مع بعض- فسبحان من نزله! فلـما عانـدوا وكـابروا وقـالوا: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[4] عـاود القـرآن لهـم التحـدي فأولًا تحداهم بأن يأتوا بمثل: القـرآن فعجـزوا ثـم قـال: ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾[5] فعجزوا وأخيرًا تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثلـه فقـال لهـم: ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾[6] فعجزوا- فلم يستطيعوا إلا أن يرموا القرآن بأنـه سـحر تـارة، وشـعر

---

(١) الطور: ٣٤.

(٢) الإسراء: ٨٨.

(٣) الإسراء: ٨٨.

(٤) الأنفال: ٣١.

(٥) هود: ١٣.

(٦) البقرة: ٢٣.

تارة وأساطير الأولين تـارة أخـرى، وهـذه حيلـة الـضعفاء الجبنـاء. وقـد كـان الرسول ﷺ مع ذلك كله ينظر إليهم نظرة الساخر ويغـض عـنهم إغـضاءه عـن الأطفال الصغار لأنه كان يعلم مدى ما كانوا يقصدونه. وحينما جـاءت قـريش إلى عم المصطفى صلى الله عليه وسلم لتصد الرسول عن دعوتـه فلـما أبـى عمـه وكان الحصن الحصين للنبي ﷺ لم يكن أمام قـريش إلا التفكـير في القـضاء عـلى القرآن وأهله، وهنا تجردوا من ضمائرهم وانسلخوا من عقولهم لأن عقـولهم قـد طاشت، وضلت أفهامهم. وكل همهم القضاء على الحبيب صلى الله عليه وسـلم لا لذنب إلا أن منطقه غلب منطقهم وبيانه غطى على بيـانهم وبلاغتـه أعجـزت فحولهم، وكانت هذه الخطـة التـي التجئـوا إليهـا بعـد هـذا التحـدي ولكـن لم يـستطيعوا عمـل شيء لأن القـرآن حفظـه الله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾[1] فالقرآن لا يموت أبدًا.

إن المتأمل للقرآن الكريم بدقة الباحث وينظر إليه بعين الفـاحص ويتدارسـه في شيء من العقل الواعي والفكر المستنير يعلم أن القوى الكامنة فيه والحـصانة التي خصه الله بها تجعله في منأى من عبث العـابثين، وهـدم المـدمرين، وتخريـب المفسدين، وبطش الجبارين وعدوان الظالمين ويُحكى أن الوليد بن يزيد بـن عبـد

(١) سورة الحجر آية: ٩.

الملك بن مروان الذي آلت إليه خلافة بني أمية فتح المصحف ليرى فأله[1] فيه على ما يفعله بعض العوام الآن- فكان حظه قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾[2] فألقاه على الأرض وداسه بقدميه، ثم مزقه بعد ذلك وقال:

تهددني بجبار عنيد وها أنذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث إلا قليلًا حتى قتل على أيدي أكابر أهله وأعيان رعيته، ولم يأسف له حميم، أو يحزن عليه صديق.

وركب الشيطان رءوس بعض الجهلاء فأدعوا النبوة كالأسود العنسي، وطليحة بن خويلد الأسدي، وسجاح بنت الحارث التميمية، وزوجها مسيلمة الذي يُضرب به المثل في الكذب فيقال: (أكذب من مسيلمة) فذهبت صيحات هؤلاء أدراج الرياح لأنهم حينما عارضوا القرآن أضحكوا الناس- حينئذ- وأشبعهم الناس سخرية واستهزاء.

والقرآن الكريم لقي محاربة من جهات عدة ولكن كلها فشلت فقد حاربته اليهود في عنفوانها، والنصرانية في إبانها،وظلت كلتاهما تعمل في خفاء وعلن،

---

(١) فأله: حظه وبخته.

(٢) سورة إبراهيم آية: ١٥.

وقوة وضعف، وجهر وهمس بعنوان العلم ونشر الثقافة، أو عنوان الحضارة والمدنية، وفتحوا المدارس وأرسلوا المبشرين هنا وهناك مجهزين بكل سلاح ومزودين بكل شيء، فلم يهدم ذلك كله مبدأ نادى به القرآن ولا مذهبًا دعا إليه، ولا إصلاحًا حث البشرية عليه، وسبب ذلك- فيما يعلم الناس عنه- أنه لم يخالف الفطرة ولم يحارب الغريزة، ولم يأت بخلق مرذول، أو أدب غير مقبول، بل جاء بتعاليم شرعها اللطيف الخبير؛ قال جل شأنه: ﴿ **هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ** ﴾[1] لأن دساتير الخلق وأنظمة الشعوب وأي قوانين من صنع البشر تجد فيها اختلافًا كثيرًا إلا القرآن لأنه من عند الواحد القهار؛ قال الحق جل وعلا: ﴿ **وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا** ﴾[2] فقوانين الناس مهما كانت كاملة، ومهما كانت قوية لا تغني شيئًا وراء الأمن الدولي، وكبح جماح الفوضى، والعمل على السلام في الأرض بسلطان العنف والقهر، وأيدٍ من حديد تبسطها على الرعية، لينزلوا على إرادتها راغمين، ومثل هذا الكبت لا يلبث أن ينطلق ولا يفتأ حتى يحطم القيد، لأن الإذعان الذي لا يصدر عن القلب لا يدوم والامتثال الذي لا يكون عن إيمان أشبه بعمل المنافقين الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ **يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا**

---

(١) البقرة: ١٨٥.

(٢) النساء: ٨٢.

﴿يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1] وكم من جماعة خضعت لمثل هذا التسلط ثم تمردت عليه وكفرت به، وتخلصت منه، لكن القرآن يبدأ علاج الداء من أصله ثم يداوي المرض من موضع العلة، ويهتم بالقلوب لأن الدافع الثوري يبتدئ منها والقوة المدبرة مركزها فيها، والإيمان الحق لا يأوي إلا إليها.

فالقرآن سيظل محفوظًا بخصومه قبل أنصاره وبأعدائه قبل أحبابه، وسيبقى مادامت الحياة؛ لأن عناصر الحياة فيه ستصونه من التلف، وتحوطه من العوادي، وسيبقى لأن البشرية الحيرى ستطلب النجاة من تلك الحيرة في يوم من الأيام فلا تجد لها دستورًا قويًّا ولا صراطًا مستقيمًا ولا علاجًا سليمًا إلا هذا الدين الذي جاء به القرآن هدى ونورًا.

* * *

(١) سورة البقرة آية: ٩.



الفصل الثاني

خصائص القرآن

الخصائص التي امتاز بها القرآن والمزايا التي توافرت فيه جعلت له طابعًا معجزًا في لغته وبلاغته أفاض العلماء فيها بين مقل ومكثر لكن بعدما دميت أقلامهم وحفيت أقدامهم ولم يزيدوا على أن قدموا لنا نقطة من بحر معترفون أنهم عاجزون، ونذكر من هذه النقطة ما يلي:

١ـ **مسحة القرآن اللفظية**: فهذه خصيصة من خصائصه تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي واتساق معانيه وائتلافه في حركاته وسكناته، ومداته وغناته وهو بذلك يصبح متسقًا اتساقًا عجيبًا مدهشًا؛ فجمال القرآن اللغوي لا يستطيع أي إنسان كان أن يوفيه حقه من الوصف ولكن لا عجب فإن الصانع هو الله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾[1].

٢ـ **إرضاؤه للعامة والخاصة**: ومعنى هذا أن القرآن إذا قرئ على العامة أحسوا بجلاله وذاقوا حلاوته وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم وعواطفهم، كذلك الخاصة إذا قرئ عليهم أحسوا بجلاله وذاقوا حلاوته

---

(١) سورة الحجر آية: ٩.

وفهموا منه أكثر مما يفهمه العامة ورأوا أنه ليس مثله كلام؛ لماذا هذا كلـه؟ لأنـه تنزيل من حكيم عليم.

٣ـ **إرضاؤه العقل والعاطفة**: فالقرآن يخاطب العقل والقلب معًا ويجمع الحق والجمال معًا فهو يهز القلوب مع عرضه للاستدلال لما يريد إثباته ويمتع العاطفة؛ فمثلًا قوله جل شأنه في سورة ق ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ** ﴾[1] الآيات؛ فتأمل هذا الأسلوب البارع الذي أقنع العقل وأمتع العاطفة، كذلك قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[2] ثم انظر إلى سياقه قصة سيدنا يوسف وهو يذكر خلالها العبر والعظات ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

٤ـ **جودة سبك القرآن وإحكام سرده**: ومعنى هذا أن القرآن بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجملة آياته وسوره مبلغًا لا يدانيه فيه أي كلام مع طول تفسيره وتنوع مقاصده وتلوينه في الموضوع الواحد؛ فلو تأملت ذلك كأنك تجد القرآن جسمًا واحدًا فإذا هو وحدة متماسكة فيه من التناسب ما يجعله سوي

---

(١) سورة ق آية: ٦.

(٢) سورة فصلت آية: ٣٩.

(٣) سورة غافر آية: ٦٤.

الخلق وحسن السمت قال جل وعلا: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾[1] فهو سبيكة واحدة تأخذ بالأبصار وتلعب بالعقول والأفكار مع أنها مؤلفة من حلقات؛ فهذه سورة الفاتحة تأمل كيف تترابط وتتناسق في حسن تخلص من معنى إلى معنى ومن مقصد إلى مقصد: لقد افتتحت متوجة ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾[2] كما يتوج القاضي كل حكم من أحكامه باسم جلاله الملك لإعلان الجهة التي يستمد منها نفوذه في صدور أحكامه ثم انتقل الكلام فيها سريعًا إلى الاستدلال على أن الاستعانة إنما هي به تعالى وحده وذلك بإضافة الاسم إلى لفظ الجلالة الذي هو اسم الذات الجامع لصفات الكمال وبوصف لفظ الجلالة بأنه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ثم انتقل الكلام إلى إعلان أنه تعالى مستحق للمحامد كلها مادام أنه المستعان وحده بالدليل ثم انتقل الكلام إلى تدعيم هذا الاستحقاق بأدلة ثلاثة جرت على اسم الجلالة مجرى الأوصاف في مقام حمده. ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[3]. ثم انتقل الكلام إلى إعلان وحدانيته في ألوهيته وربوبيته ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[4] ما دام أنه هو المعين وحده ومستحق المحامد كلها وحده. ثم انتقل الكلام في براعة إلى بيان المطمح

(١) سورة الزمر آية: ٢٨.

(٢) سورة الفاتحة آية: ١.

(٣) سورة الفاتحة آية: ٢-٤.

(٤) سورة الفاتحة آية: ٥.

الأعلى للإنسان وأن هذا المطمح الأعلى هو الهداية إلى الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل إلى الوصول إلى هذا المطمح عن طريق أحد إلا عن طريق الله وحده بقرينة ما سبق من أدلة التوحيد والتمجيد قبله. ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾[1] ثم انتقل الكلام من حيث لا تشعر أو من حيث تشعر إلى تقسيم الخلق بالنسبة إلى هذه الهداية ثلاثة أقسام تنبيهًا وإغراء على المقصود وتحذيرًا وتنفيرًا من الوقوع في نقيض هذا المقصود ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[2]، فإذا الناس أمام عينيك بين منعم عليه بمعرفة الحق واتباعه ومغضوب عليه بمخالفة الحق مع العلم به وضال رضي أن يعيش عيشة البهائم في متاهة الجهالة والحيرة والضلال لا يكلف نفسه عناء البحث عن الحق ليتشرف بمعرفته ويسعد باتباعه. ثم تنظر في سورة البقرة فإذا هي وما بعدها ترتبط بالفاتحة ارتباط المفصل بالمجمل. فالهداية إلى الصراط المستقيم صراط من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين تشرحها سورة البقرة وما تبعها من سور القرآن. حيث جاءتنا بتفاصيل هذه الهداية في بيان كامل وعرض شامل.

---

(١) سورة الفاتحة آية: ٦.

(٢) سورة الفاتحة آية: ٧.

٥ـ **براعته في تصريف القول وثروته في أفانين الكلام**، ومعنى هذا أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ وطرق مختلفة بمقدرة فائقة خارقة تنقطع في حلبتها أنفاس الفصحاء والبلغاء ولنضرب أمثلة: منها تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين بالوجوه الآتية:

١. الإتيان بصريح مادة الأمر نحو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾[1].

٢. الإخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين نحو ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[2].

٣. الإخبار بكونه على الناس نحو: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾[3].

٤. الإخبار عن المكلف بالفعل المطلوب منه نحو: ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾[4].

٥. الإخبار عن المبتدأ بمن يطلب تحقيقه من غيره نحو: ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[5].

على معنى: من دخل المسجد الحرام فَأَمِّنوه.

---

(١) سورة النساء آية: ٥٨.

(٢) سورة البقرة آية: ١٨٣.

(٣) سورة آل عمران آية: ٩٧.

(٤) سورة البقرة آية: ٢٢٨.

(٥) سورة آل عمران آية: ٩٧.

٦. طلب الفعل بصيغة الأمر نحو: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾[1] ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾[2].

٧. وصف الفعل وصفًا عنوانيًّا بأنه بر: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾[3].

٨. وصف الفعل بالفرضية نحو: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ ﴾[4] .

٩. ترتيب الوعد والثواب على الفعل نحو: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾[5].

١٠. ترتيب الفعل على شرط قبله نحو: ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾[6].

١١. إيقاع الفعل منفيًّا معطوفًا عقب استفهام نحو: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾[7] أي تذكروا.

١٢. إيقاع الفعل عقب تَرَجٍّ نحو: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾[8].

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٣٨.

(٢) سورة الحج آية: ٢٩.

(٣) سورة البقرة آية: ١٨٩.

(٤) سورة الأحزاب آية: ٥٠.

(٥) سورة الحديد آية: ١١

(٦) سورة البقرة آية: ١٩٦.

(٧) سورة النحل آية: ١٧.

(٨) سورة القصص آية: ٧٣.

١٣. ترتيب وصف شنيع على ترك الفعل نحو: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[1].

٦ـ **الخاصة السادسة: جمع القرآن بين الإجمال والبيان** مع أنهما غايتان متقابلتان لا يجتمعان في كلام أحد الناس! بل كلامهم إما مجمل وإما مبين لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان وإما خفية تحتاج إلى بيان فتسمع الجملة من القرآن فإذا هي بينة مجملة في آن واحد، وصدق الشاعر حيث قال:

يزيـــدك وجهـــه حـــسنًا　　　إذا مـــا زدتـــه نظـــرا

ولهذا السر وَسِعَ القرآن أصحاب المذاهب المختلفة وأخذت الأجيال المتعاقبة عن مدده الفياض مما جعلهم يجتمعون عليه ويدينون به والأمر في هذه الخصيصة واضح في كتب التفسير ففيها الكثير.

٧ـ **الخاصة السابعة: قصد القرآن في اللفظ مع وفائه بالمعنى،** ومعنى هذا أنك في كل جمل القرآن تجد بيانًا شافيًا مقدرًا على حاجة النفوس البشرية دون أن يزيد اللفظ على المعنى أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق، وصدق

---

(١) سورة المائدة آية: ٤٤.

الله إذ يقول: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾[1] ولا يمكن أن تظفر في غير القرآن بمثل الذي تظفر به في القرآن.

وإذا أردت أن تلمس بنفسك هذه الخاصة فافتح المصحف الشريف مرة، واعمد إلى جملة من كتاب الله وأحصها عددًا، ثم خذ بعدد تلك الكلمات من أي كلام آخر وقارن بين الجملتين ووازن بين الكلامين، وانظر أيهما أملأ بالمعاني مع القصد في الألفاظ ثم انظر إلى أي كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها بما هو خير منها في ذلك الكلام الإلهي فلن تجد وانظر كم كلمة يمكن أن تسقطها أو تبدلها من الكلام البشري، وصدق ابن عطية حيث قال: «**لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد**».

فسبحان الله إنه كلامه منزه عن النقص وعن كل العيوب.

٨ـ **الإيجاز العجيب في الكلام**؛ إذ تعبر آيات القرآن بأقل عدد من الكلمات عن أفكار كثيرة يصعب التعبير عنها في العادة إلا بجمل مطولة نسبيًّا؛ فمثلًا قوله جل وعلا: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾[2] قال العلماء

(١) سورة هود آية: ١.

(٢) سورة هود آية: ٤٤.

والمفسرون: لو حاولت أن تتكلم وتذكر أوجه البلاغة في هذه الآيات ما وسعتك المجلدات مع أنها بعض كلمات ولكنها كلمات حكيم خبير، وانظر إلى سورة النمل أيضًا عند قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾[1] كم من أوجه البلاغة فيها حتى في آخرها تجد النملة تختم كلامها بجملة لطيفة جميلة وهي جملة اعتذارية أي تعتذر لسليمان وجنوده، وهي قولها: ﴿**وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ**﴾ فسبحان من أنزل هذا الكتاب على رسول أمي لا يقرأ ولا يكتب.

ويضاف إلى هذا كله دقة التعبير والدقة في اختيار الألفاظ، والتركيز الشديد في المعنى حيث لا تقابلنا كلمة زائدة بل إيجاز معجز- بحيث قد يقول رجل الشارع البسيط قد فهمت جيدًا، ومع ذلك نجد المرونة والعمق والإيحاء من كل جانب مثل قطعة الماس البراقة لدرجة أن جميع الفنون والعلوم الإسلامية تستمد على الدوام من هذا المصدر قواعدها ومبادئها؛ إنها حقيقة مقررة عرفها الناس جميعًا.

ولغة القرآن مادة صوتية تبعد عن طراوة لغة أهل الحضر وخشونة لغة أهل البادية، وتجمع- في تناسق عجيب- بين رقة الأولى وجزالة الثانية، وتحقق السحر المنشود بفضل هذا التوفيق الموسيقي البديع بينهما.

(١) سورة النمل آية: ١٨.

إن آيات القرآن تأتي على ترتيب في مقاطع الكلمات في نظام أكثر تماسكًا من النثر وأقل نظمًا من الشعر تتنوع فيه الأساليب ويختلف فيه عرض القصة الواحدة لجذب نشاط السامع،ويتجانس في آخر الآيات سجع جميل؛ لكي لا يختل الجرس العام للوقفات في كل سورة، وأما كلماته فمنتقاة من بين الكلمات المشهورة دون أن تهبط إلى مستوى الدارج، ومختارة من بين الكلمات السامية التي لا توصف بالغريب النادر.

فسبحان مُنزل هذا الكتاب من فوق سبع سموات لتعليم البشرية جميعًا وليوقن الجميع وليعترف الكل بالعجز والنقص، وأن الكمال لله وحده ولكتابه.

* * *

الفصل الثالث

شبه حول القرآن والرد عليها

تمهيد

الحمد لله الذي نـزل الفرقـان عـلى عبـده ليكـون للعـالمين نـذيرًا، والـصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين.

وبعد، فإن الحديث عن القرآن الكـريم طريـف في كـل وقـت؛ لذيـذ في كـل حال؛ فياض المعين، خصب الجوانب، لا يمكن أن ينتهي حسنه، أو تـبلى جدتـه أو يمل جرسه أو يثقل على السمع رجعه، وصفات القرآن الكريم تكاد لا تحصى مهما تربص المستشرقون والحاقدون ومهما أثاروا من شبهات فكتـاب ربنـا أجـلُّ وأعظم وأرفع شأنًا، وقبل أن أكتب عن هذا الموضوع أتذكر قـول عبـد المطلـب حينما جاء أبرهة الحبشي لهـدم الكعبـة... فقـال كلمتـه المـشهورة: «**للبيـت رب يحميه**» ونحن نقول: «**للقرآن رب يحميه**» ثم علماء أماجد غيـورون عـلى ديـنهم وقرآنهم يقظون لكل حاقد يريد أن ينال من كتاب ربنا.

وأنا لا أريد أن أبدأ عن الشبهات لأني لو صدَّرت بحثي عن إثارة الشبهات فأكون بذلك أعطيت للمستشرقين والحاقدين أصحاب الشبهات قدرًا وهم أقل من ذلك، ولكن سوف أبدأ بحثي بمشيئة الله بنبذة مختصرة عن إعجاز القرآن.

القرآن كتاب هداية وإعجاز

القرآن كتاب هداية وإعجاز من أجل هذين المطمحين نزل، وفيهما تحدَّث وعليهما دل؛ فالقرآن معجزة الله الباقية إلى قيام الساعة وكلما تقدم العلم الحديث أثبت- وسيظل يثبت- أن القرآن معجزة خالدة.

فالقرآن قوي الحجة والبرهان؛ فمثلًا في طريقة عرضه للبداية والإعجاز في الخلق قد حاكم الناس إلى عقولهم وفتح عيونهم على الكون وما في الكون من سماء وأرض وبر وبحر، وحيوان ونبات، وخصائص وظواهر ، وقوانين وسنن، وكان القرآن في طريقة عرضه موفقًا كل التوفيق، بل كان معجزًا أبهر الإعجاز لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها، والخبير بدقائقها، المحيط بعلومها ومعارفها، مع أن الذي جاء بالقرآن رجل أمي نشأ في أمة أمية جاهلة لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها ولا إلمام لها بكتبها ومباحثها. بل بعض تلك العلوم لم ينشأ إلا بعد عهد النبوة ومهبط الوحي بقرون وأجيال، فأنَّى يكون لرجل أمي كمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك السجل الجامع لتلك المعارف كلها إن لم يكن تلقاه من رب العالمين، وصدق ربنا جل وعلا إذ يخاطب نبيه وحبيبه فيقول جل شأنه: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ**

بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[1].

أمثلة:

يقول الله تعالى في سورة القيامة مبينًا ومقررًا كمال اقتداره على إعادة الإنسان وبعثه بعد موته: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ ﴾[2].

فليتأمل الإنسان وليفكر في تخصيصه (البنان)[3] بالتسوية في هذا المقام. ثم تستمع بعد ذلك إلى هذا العلم الجديد «**علم تحقيق الشخصية**» في عصرنا الحاضر، وهو يقرر أن أدق شيء وأبدعه في بناء جسم الإنسان هو تسوية البنان، حتى إنه لا يمكن أن تجد بنانًا لأحد يشبه بنان آخر بحال من الأحوال، وقد انتهوا في هذا القرار إلى أن حكَّموا البنان في كثير من القضايا والحوادث ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[4].

(١) سورة العنكبوت آية: ٤٨.

(٢) سورة القيامة آية: ٣.

(٣) البنان: أطراف الأصابع، والمقصود في الفقرة: «الحديث عن البصمات».

(٤) سورة المؤمنون آية: ١٤.

مثال آخر:

يقول ربنا جل شأنه في سورة النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾[1].

فبالله عليك ألا يملكك العجب حين تقرأ هذا النص القرآني الجليل الذي يتفق وأحدث النظريات العلمية في الظواهر الطبيعية: من سحاب،ومطر، وبرق؟!.

وأنا لا أريد أن أطيل على حضرتك في هذا المجال (مجال إعجاز القرآن) فمعجزات القرآن العلمية لها ميدان آخر. وإنما هذه نظرة خاطفة عن إعجاز كتاب ربنا؛ فالله وحده هو المحيط بأسرار كتابه.

ولا يزال الكون وما يحدث فيه من علوم وفنون وأسرار لا يزال كل أولئك يشرح القرآن ويفسره ويكشف النقاب عن نواح كثيرة من أسراره وإعجازه

---

(١) سورة النور آية: ٤٣.

مصداقًا لقول الحق جل وعلا: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[1].

* * *

---

(١) سورة فصلت آية: ٥٣.

*** الشبهة الأولى: أن النبي ﷺ كان مصابًا بـ(الهستريا)**

يقول هؤلاء الحاقدون: إن محمدًا كان عصبيًّا حاد المزاج، وكان مريضًا بما يسمونه (الهستريا) فالوحي الذي كان يزعمه ما هو إلا أعراض لتلك الحال التي أصيب بها.

** الرد:

هذه فرية تدل على جهلهم الفاضح بالحبيب صلوات الله وسلامه عليه؛ فالمعروف عنه بشهادة التاريخ الصحيح والأدلة القاطعة أنه كان صلى الله عليه وسلم وديعًا، صبورًا، حليمًا، بل كان عظيم الصبر، واسع الحلم، فسيح الصدر، حتى إنه وسع الناس جميعًا ببسطه وخلقه وكان شجاعًا مقدامًا سليم الجسم، صحيح البدن حتى إنه صارع «**ركانة**» المشهور بالفتوة والشجاعة فصرعه وكان ذلك سببًا في إسلامه، وكان يثبت في الميدان حين يفر الشجعان ويفزع الخلق ويشتد الأمر فهو القائل في إحدى الغزوات: «**أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب**»، بل الصحابة- المشهور لهم بالشجاعة- يقولون: «**كنا نحتمي برسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حمي الوطيس**»[1].

أما مرض الهستريا الذي يرمون به النبي ﷺ كذبًا فهو داء عصبي عضال أكثر إصاباته في النساء، ومن أعراضه شذوذ في الخُلق، وضيق في التنفس، واضطراب

(١) إذا حمي الوطيس: أي إذا اشتدت المعركة.

في الهضم، وقد يصل بصاحبه إلى شلل موضعي ثم إلى تشنج ثم إلى إغماء ثم إلى هذيان مصحوب بحركة واضطراب اليدين والرجلين وقفز من مكان إلى مكان، وقد يزعم المصاب أنه يرى أشباحًا تهدده وأعداء تحاربه أو أنه يسمع أصواتًا تخاطبه على حين أنه لا وجود لشيء من ذلك كله في الحس والواقع.

فيا أيها العقلاء:

وأنا أخاطب العقلاء؛ لأنهم يحكمون عقولهم وليس أهواءهم الدفينة؛ فيا أيها العقلاء: هل يتفق ذلك المرض العضال الذي أعيا الأطباء وما جاء به نبي الأمة الذي كوَّن أمة إسلامية وقام بتربيتها ورعايتها على أسمى نواميس الهداية ودساتير الاجتماع وقوانين الأخلاق، وقواعد النهضة والرقي والتحضر؟!

ثم إضافة إلى ذلك أيها العقلاء أنه نجح في هذه المحاولة إلى درجة جعلت تلك الأمة بعد قرن واحد من الزمان هي قائدة الأمم، وصاحبة العلم، وربة السيف؛ فهل المريض المتهور الذي لا يصلح لقيادة نفسه يتسنى له أن يقوم بهذه القيادة العالمية الفائقة ثم ينجح فيها هذا النجاح الباهر المدهش؟! ويحضرني الآن قول الشاعر:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

ولكن مهما تكلم الحاقدون فهم لا يرجعون عن شبههم فكل يوم يأتون بالشبهة تلو الشبهة لأن حقدهم الدفين وكبرهم العنيد يمنعهم من الانقياد إلى تحكيم عقولهم- هذا إن كانت لهم عقول- لكن صدق ربنا حيث قال جل شأنه:

﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤) ﴾[1].

*** الشبهة الثانية: أن القرآن جاء به محمد ﷺ من عند نفسه لتميزه بين قومه**

يقولون: إن إعجاز القرآن للعرب لا يدل على أن القرآن كلام الله، بل هو كلام محمد نسبه إلى ربه ليستمد قدسيته من هذه النسبة، وإعجازه جاء من ناحية أن محمدًا كان الفرد الكامل في بيانه بين قومه، لذلك جاء قرآنه الفرد الكامل أيضًا بين ما جاء به قومه، ولم يستطيعوا لهذا الاعتبار وحده أن يأتوا بمثله؛ شأن الرجل الفذ بين أقرانه في كل عصر.

**** الرد:**

أولًا: كل من له عقل سليم وكل من أوتي حظًّا من حسن البيان وذوق البلاغة يفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي فرقًا كبيرًا يمثل الفرق الكبير بين مقدور الخالق ومقدور المخلوق. وها هما القرآن والحديث النبوي لا يزالان قائمين بيننا يناديان الناس بهذا الفارق البعيد، ثم إن كان لهذه

---

(١) سورة الفرقان آية: ٤٤.

الشبهة شيء من الوجاهة لكان أولى الناس بترديدها أولئك العرب الخُلص الذين أعجزهم القرآن وتحداهم. لأنهم كانوا أحرص الناس على تعجيز محمد وإسكاته للاعتبارات التاريخية المعروفة ولكنهم ما قالوا هذا. بل كانوا أكرم على أنفسهم من أن يقولوه، إيقانًا منهم بظهور المميزات الفائقة لكلام الربوبية على كلام النبوة، بحيث لا يلتبس أحدهما بالآخر في شيء، وهكذا (من ذاق عرف ومن حُرم انحرف).

ثانيًا: القرآن الكريم لم يأتِ الناس من الخلف، بل جاءهم من أوسع الأبواب، ودخل عليهم من طريق العرب الخلصاء أصحاب اللسان والبيان، وتحداهم من الناحية التي نبغوا فيها وهي صناعة الكلام وهي موضع فخرهم؛ فالقرآن شأنه شأن جميع المعجزات لم تأتِ إلا من الناحية المفهومة لهم كل الفهم؛ وذلك ليظهر أمر الله واضحًا لا غموض فيه ولا لبس ولا شبهة ولا شكوك، وصدق المولى عز وجل: ﴿ **رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾** ﴾[1].

ومن هنا يعلم الجميع- والتاريخ خير شاهد- أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد صلى الله عليه وسلم- كما يقول الملاحدة- لأمكن لهؤلاء العرب البارزين في البيان والبلاغة أن يعرفوا أنه كلامه بما أوتوا من ملكة النقد،ثم لأمكن لهم أن

---

(١) سورة النساء آية: ١٦٥.

يحاكوه ويقلدوه ولو شوطًا قريبًا إن لم يكن شوطًا بعيدًا؛ خاصة أن القرآن تحداهم بأن يأتوا بسورة مثل أقصر سورة أي بمثل ثلاث آيات قصار من بين آلاف الآيات التي اشتمل عليها الكتاب الجليل.

ومعلوم أن النابغة الفذ في أي عصر من العصور يستطيع أقرانه بيسر وسهولة أن يحاكوه مجتمعين أو منفردين في الشيء القليل على فرض أنهم لا يستطيعون معارضته.

ثالثًا: لو أن القرآن مصدره نفس محمد صلى الله عليه وسلم لكان من الفخر له أن ينسبه إلى نفسه ولأمكن أن يدعي به الألوهية فضلًا عن النبوة، ولكان مقدسًا في نظر الناس ﴿ **فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا** ﴿٧٨﴾ ﴾[1]!

رابعًا: غاب عن هؤلاء الملاحدة أنهم يتحدثون عن أطهر شخصية عرفها التاريخ على وجه الأرض؛ هذه الشخصية وصفت حتى من أعداء الإسلام بالصدق والأمانة فكانوا يلقبونه بالصادق الأمين.

والعقل المنصف يقول: إذا كان هذا لا يكذب على الناس فهل يكذب على الله؟! تعالى الله عما يقولون، وجل شأن الرسول صلى الله عليه وسلم عما يصفون. ﴿ **وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ** ﴿٨﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة النساء آية: ٧٨.

خامسًا: هذه الشبهة وليدة الغفلة عن مضامين القرآن العلمية والغيبية خاصة أن الآتي بهذا القرآن رجل أمي في أمة أمية كانت تعيش في أظلم عهود الجاهلية؛ إضافة إلى ذلك ما جاء به القرآن وسجله عن أخطاء بعض اجتهادات الرسول صلى الله عليه وسلم فتارة يعاتبه ربه بلطف وتارة بعنف فلو كان القرآن من عند الرسول لأخفى ذلك كله. وصدق الله إذ يقول: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[2] ويا ليت هؤلاء يفيقون من غفلتهم كما أفاق غيرهم ورجع عن شبهاته!

(١) سورة المنافقون آية: ٨.

(٢) سورة يوسف آية: ١١١.

*** الشبهة الثالثة: ما يتعلق بجمع القرآن**

***أولًا:**

يقولون: إن طريقة كتابة القرآن وجمعه دليل على أنه قد سقط منه شيء وأنه ليس اليوم بأيدينا على ما زعم محمد أنه أنزل عليه، واعتمد في هذه الشبهة على المزاعم الآتية:

أولًا: أن محمدًا صلى الله عليه وسلم قال: «**رحم الله فلانًا لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت أسقطتهن**» ويروى «**أنسيتهن**». فهذا الحديث فيه اعتراف من النبي نفسه أنه أسقط عمدًا بعض آيات القرآن أو أُنسيها.

الرد: الحديث الذي أوردوه لا ينهض حجة لهم فيما زعموا من الشك في الأصل الذي قامت عليه كتابة القرآن وجمعه، بل الأصل سليم قويم وهو وجود هذه الآيات مكتوبة في الوثائق التي استكتبها الرسول صلى الله عليه وسلم ووجودها محفوظة في صدور أصحابه الذين تلقوها عنه، والذين بلغ عددهم مبلغ التواتر[1]، وأجمعوا جميعًا على صحته.

إنما قصارى هذا الخبر أنه يدل على أن قراءة ذلك الرجل ذكرت النبي صلى الله عليه وسلم إياها وكان قد أُنسيها أو أسقطها (أي نسيانًا)، وهذا النوع من

---

(١) التواتر: عبارة عن تتابع الخبر عن جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة.

النسيان لا يزعزع الثقة بالرسول صلى الله عليه وسلم ولا يشكك في دقة جمع القرآن ونسخه؛ فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد حفظ هذه الآيات قبل أن يحفظها هذا الرجل ثم استكتبها كتاب الوحي وبلغها الناس فحفظوها عنه، ومنهم رجل الرواية عبَّاد بن بشار رضي الله عنه على ما رُوي، وليس في الخبر الذي ذكروه رائحة أن هذه الآيات لم تكن بالمحفوظات التي كتبها كتاب الوحي، وليس فيه ما يدل على أن أصحاب الرسول كانوا قد نسوها جميعًا حتى يخاف عليها وعلى أمثالها من الضياع ويخشى عليها السقوط عند الجمع واستنساخ المصحف ثم إنهم كانوا لا يكتبون إلا بعد الإجماع على قرآنية هذه الآيات. ثم جاءت كلمة «**أسقطتهن**» في بعض روايات الحديث أي «**نسيانًا**» كما تدل الرواية الأخرى «**أنسيتهن**» ومحال أن يراد بالإسقاط العمد فلا يصح ولا ينبغي للرسول أن يبدل شيئًا من كلام القرآن بزيادة أو نقص وإلا كان خائنًا، والخائن لا يكون رسولًا؛ قال جل شأنه: ﴿ **قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ** ﴾[1] وقال جل جلاله: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩** ﴾[2].

---

(١) سورة يونس آية: ١٥.

(٢) سورة الحجر آية: ٩.

ثانيًا:

ما جاء في سورة الأعلى ... ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[1] يدل الاستثناء على أن محمدًا أسقط عمدًا أو أُنسي آيات لم يجد من يذكره بها.

الرد: هذا لا يدل على ما زعموه لأنه استثناء صوري وليس حقيقي، والحكمة فيه أن يعلن الله عباده أن عدم نسيانه صلى الله عليه وسلم الذي وعده الله إياه في قوله (فلا تنسى) هو محض فضل من الله وإحسان ولو شاء الله أن ينسيه لأنساه، وهذا له فوائد بأن يشعر الحبيب صلوات الله وسلامه عليه أنه مغمور بنعمة الله وعنايته، ولكي تعلم أمة النبي صلى الله عليه وسلم بأنه اختص نبيها بالعطايا والخصائص التي لم تكن لأحد من قبله، والدليل على أن الاستثناء صوري ما جاء في سبب نزول هذه الآية وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعب نفسه بكثرة القراءة وقت نزول الوحي مخافة نسيانه فأنزل الله يطمئنه فقال: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ ﴾[2] وآية ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝ ﴾[3].

---

(١) سورة الأعلى آية: ٦-٧.

(٢) سورة القيامة آية: ١٦-١٧.

(٣) سورة طه آية: ١١٤.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1] يعلق وقوع النسيان على مشيئة الله، والمشيئة لم تقع بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾[2] فعدم حصول المعلق عليه يستلزم عدم حصول المعلق؛ يقول الإمام محمد عبده في تفسيره للاستثناء في هذه الآية: «**ما ورد من أنه صلى الله عليه وسلم نسي شيئًا كان يذكره فذلك إن صح فهو غير ما أنزل الله من الكتاب والأحكام التي أمر بتبليغها، وكل ما يقال في ذلك من مدخلات الملحدين التي جازت عقول المغفلين فلوَّثوا بها ما طهره الله، فلا يليق بمن يعرف قدر صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ويؤمن بكتاب الله أن يصدق بشيء من ذلك**».

ثالثًا:

قالوا: الصحابة حذفوا من القرآن كل ما رأوا المصلحة في حذفه؛ فمن ذلك آية المتعة أسقطها علي بن أبي طالب، وكان يضرب من يقرؤها. وهذا مما شنعت عائشة به فقالت: إنه يجلد على القرآن، وينهى عنه، وقد بدّله وحرّفه.

وكذلك أبي بن كعب حذف من القرآن ما كان يرويه ولا نجده اليوم في المصحف وهو «**اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثني عليك الخير كله نشكرك ولا نكفرك، ونخلع ونترك**

---

(١) سورة الأنعام آية: ١٢٨.

(٢) سورة القيامة آية: ١٧.

من يفجرك، اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد. نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك الجد بالكفار ملحق».

الرد: ما احتجوا به من حذف الصحابة ما رأوا في حذفه مصلحة مثل آية المتعة وصيغة القنوت[1] فهو احتجاج باطل قائم على إهمال النصوص الصحيحة عن الصحابة؛ فالصحابة كانوا أحرص الناس على الاحتياط للقرآن فإنهم لم يعتبروا من القرآن إلا ما ثبت بالتواتر، وردُّوا ما لم يثبت بالتواتر لأنه غير قطعي، ويأبى عليهم دينهم أن يقولوا بقرآنية ما ليس بقطعي؛ فآية المتعة التي يزعمونها وصيغة القنوت لم تثبت قرآنيتها حتى يكونا في عِداد القرآن، وإن ادعوا قرآنيتها فعليهم البيان، فالقرآن المروي عن أُبي الذي أثبته في مصحفه لم تقم الحجة بأنه قرآن منزل بل هو ضرب من الدعاء، ويمكن أن يقال: إنه كان قرآنًا منزلًا ثم نُسخ وأبيح الدعاء به، ولم يصح عن أُبي رضي الله عنه أنه أثبت في مصحفه، وهذا هو القنوت الذي أخذ به الأحناف. وبعض الصحابة كان يكتب تفسيرًا أو تأويلًا لبعض آيات القرآن لنفسه فظن قصار النظر أنه قرآن، إضافة إلى ذلك نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن كتابة شيء عنه: «**لا تكتبوا عني ومن كتب عني شيئًا غير القرآن فليمحه**»[2] وذلك مخافة اللبس، والصحابة كلهم يعلمون ذلك.

---

(١) القنوت: الدعاء.

(٢) رواه الإمام مسلم.

رابعًا:

قالوا: كثير من آيات القرآن لم يكن لها قيد سوى حفظ الصحابة، وكان بعضهم قد قُتلوا في مغازي محمد وحروب الخلفاء، وذهب من القرآن ما يحفظونه فلم يجمع أبو بكر إلا من الأحياء.

الرد: هذا الكلام لا يسلم به لأن نفس ما كان يحفظه الشهداء كان يحفظه غيرهم من الأحياء بدليل قول عمر رضي الله عنه: «**وأخشى أن يموت القراء من سائر المواطن**» ومعنى هذا أن القراء لم يموتوا كلهم، إنما المسألة مسألة خشية وخوف، ومعلوم أن أبا بكر رضي الله عنه كان من الحفاظ وكذلك عثمان وعمرو وعلي وزيد بن ثابت وغيرهم، وهؤلاء عاشوا حتى جُمع القرآن في المصحف؛ فالقرآن كان مكتوبًا كله حتى إن الصحابة في جمعه كانوا يستوثقون له بأن يعتمدوا على الحفظ والكتابة معًا دون الاكتفاء بأحدهما ثم يتأكدون من أنه قد كُتب بين يدي الرسول ﷺ، وأكثر من ذلك أنهم كانوا يطلبون على ذلك شاهدين قبل الكتابة.

خامسًا:

قالوا: إن بعض القرآن كان مكتوبًا على العظام وغيرها وكان مكتوبًا بلا نظام ولا ضبط وقد ضاع بعضها، وهذا ما جعل بعض العلماء يقولون: إن في القرآن

آيات نُسخت حرفًا لا حكمًا، وهو من غريب المزاعم، والحقيقة أنها سقطت بضياع العظم.

الرد: هذا زعم باطل لأن ترتيب الآيات كان توقيفيًّا[1]، والرسول صلى الله عليه وسلم كان يأمر الصحابة بوضع الآية كذا في موضع كذا من سورة كذا، وكان يقرؤها الصحابة ويحفظها الجميع، وكان يكتبها من شاء منهم فصار القرآن محفوظًا.

(١) توقيفًا: أي مأمورًا به من الشارع.

الفصل الرابع

معنى الإعجاز والمعجزة

والله إن القلم ليعجز حينما يريد أن يُسطر كل ما في القرآن من إعجاز، فالمتدبر والمتأمل في كتاب ربنا يجد أن إعجاز القرآن لم ولن ينتهي إلى قيام الساعة، ولم لا وهو منزل من حكيم عليم؟ ولم لا والقرآن أعجز فحول العرب أن يأتوا بعشر سور من مثله أو حتى بأقل سورة! ولم لا وقد قال ربنا جل وعلا: ﴿ **قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾** ﴾[1].

ولنبدأ معًا أخي القارئ في تعريف الإعجاز والمعجزة.

فالإعجاز في اللغة العربية هو: نسبة العجز إلى الغير؛ قال ربنا عز وجل على لسان قابيل: ﴿ **فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾** ﴾[2] وتسمى المعجزة «**معجزة**» لأن البشر يعجزون عن الإتيان

---

(١) سورة الإسراء آية: ٨٨.

(٢) سورة المائدة آية: ٣١

بمثلها؛ لأنها أمر خارق للعادة، ومعنى إعجاز القرآن هو إثبات عجز البشر- متفرقين ومجتمعين- عن الإتيان بمثله وكذلك سائر معجزات الأنبياء الكرام التي يعجز البشر عن الإتيان بمثلها؛ فالمعجزات إذن براهين من ربنا جل وعلا إلى عباده بصدق رسله وأنبيائه؛ فكأن الله تعالى- بواسطة هذه المعجزة- يقول: صدق عبدي فيما بلغ عني، وأنا أرسلته ليبلغكم ذلك، والدليل على صدقه أني أُجري على يديه خوارق العادات مما لا يستطيع أحد منكم أن يأتي بمثله، وليس بمقدور أحد من الناس أن يجاريه في مثل هذا الأمر العجيب.

وبعد أن علمت أيها القارئ الكريم معنى الإعجاز والمعجزة فتعالَ بنا الآن ندق باب هذا العلم العظيم، وندخل سويًّا في إمكانية تحقيق الإعجاز.

فمتى يتحقق الإعجاز ؟

يتحقق الإعجاز إذا توافرت فيه أمور ثلاثة:

(١) التحدي؛ أي طلب المباراة والمعارضة.

(٢) أن يكون الدافع إلى ردِّ التحدي قائمًا.

(٣) أن يكون المانع منتفيًا.

وهيا بنا أيها الأخ الفاضل لنوضح هذه الأمور ببعض الأمثلة.

فمثلًا هذا القرآن العظيم- معجزة محمد الصادق الأمين- تحدى الله به العرب خاصة؛ والناس أجمعين؛ يأتي به نبي أمي لا يعرف القراءة والكتابة، ولم يدرس في مدرسة أو معهد أو جامعة من الجامعات، ولم يثبت عنه أنه تلقى شيئًا من العلوم أو المعارف ولم يتصل بأحد من علماء أهل الكتاب (اليهود والنصارى) حتى يطلع على أخبار الأمم السابقين وأخبار الأنبياء المتقدمين بل جاءهم بهذا الكتاب المجيد متحديًا لهم- وهم من؟! أئمة الفصحاء والبلغاء، وطلب منهم التحدي بصوت مرتفع يستفز العزيمة ويدفع إلى المباراة؛ لكن هيهات هيهات لهم فقد جاءت هزيمتهم، وأي هزيمة؟ إنها هزيمة منكرة! معلنة إفلاسهم، أفليس هذا أكبر شاهد وأكبر برهان على إعجاز القرآن؟ اللهم نعم.

أسلوب القرآن في التحدي

القارئ الذكي الفطن ما من رجل يتتبع أسلوب القرآن إلا ويجده في إعلانه التحدي جاء بصور متعددة وأساليب متنوعة تهز كيان العرب هزًّا، وتجرهم إلى الميدان جرًّا؛ في أسلوب ممتع وجميل ورائع يملك عليهم شعورهم ويستحوذ على أفئدتهم بسحره وجماله وروعته؛ لقد تحداهم بأن يأتوا بمثل القرآن فعجزوا مع أنهم فرسان الفصاحة وملوك البيان، فتنزل معهم إلى عشر سور من مثله مفتريات، فانقطعوا واندحروا، فتنزل معهم إلى ما أهو أسهل؛ إلى الإتيان بمثل سورة واحدة فقط فلم يتقدم واحد منهم إلى حلقة الميدان بل رفعوا الرايات البيضاء معلنين الخزي والعار لهم، وثبتت بذلك معجزة النبي الصادق الأمين في

أنه تنزيل رب العالمين؛ قال جل وعلا: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾[1].

أنواع التحدي

عزيزي القارئ، وأختي القارئة، التحدي في القرآن الكريم نوعان:

(١) التحدي العام

(٢) التحدي الخاص

أما الأول فقد جاء لجميع الخلائق بمن فيهم من العباقرة، والفلاسفة أو العلماء، والحكماء، فجاء لكل البشر بدون استثناء؛ سواء عربًا أو عجمًا، بيضًا أو سودًا، مؤمنهم وكافرهم؛ فلنستمع معًا- أنا وأنتم- إلى هذا التحدي الصارخ العجيب في سورة الإسراء: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[2].

(٢) أما التحدي الثاني (التحدي الخاص) فقد جاء للعرب خاصة، وعلى الأخص منهم كفار قريش، وقد ورد هذا التحدي على نوعين:

---

(١) سورة الشعراء آية: ١٩٢-١٩٥.

(٢) سورة الإسراء آية: ٨٨.

(أ) تحدي كلي: وهو التحدي بجميع القرآن في أحكامه، وروعته، وبلاغته، وبيانه.

(ب) تحدي جزئي: وهو التحدي بمثل سورة من سور القرآن الكريم، ولو كان أقصر سورة مثل سورة الكوثر، فالأول مثل قوله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾[1] والمراد بالحديث هنا (قرآن مثله). أي فليأتوا بقرآن يشبه القرآن الذي جاء به محمد الذي يزعمون أنه افتراء وتقوُّل على الله، وأيضًا ورد التحدي بالقرآن كله في سورة القصص في قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2].

أما التحدي الجزئي فقد ورد في سورة (هود) في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم ﴾[3] كما ورد التحدي بأقل من ذلك فتحداهم بسورة واحدة من أقصر سور القرآن، وجاء هذا التحدي مقرونًا بالتعجيز الفاضح في الحاضر والمستقبل؛ بعد قولتهم القبيحة قالوا: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ

(١) سورة الطور آية: ٣٤.

(٢) سورة القصص آية: ٤٩.

(٣) سورة هود آية: ١٣.

﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[1] فجاءهم التحدي بقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[2] قال المفسر الجليل الإمام القرطبي عليه رحمة الله في تفسيره القيم (الجامع لأحكام القرآن) قوله: (فإن لم تفعلوا) يعني فيما مضى، (ولن تفعلوا) أي لن تطيقوا ذلك فيما يأتي، وفيه إثارة لهممهم وتحريك لنفوسهم ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها.

عجز العرب عن المعارضة

لقد عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن مع انتفاء ما يمنعهم من معارضة القرآن وذلك لأنه نزل بلسان عربي هو لسانهم، وألفاظه من أحرف العرب، وعباراته على أسلوب العرب، وهم أهل البيان، وأمراء الفصاحة والبلاغة، وقد دلتهم أشعارهم ونطقت خطبهم وحكمهم على براعتهم في ذلك، وعلى أنهم بلغوا القمة في مجال الفصاحة والبيان، كما أثبتت الأيام أنهم من ذوي القدرة والاستطاعة على أن يبرزوا في الشعر والنثر وأن يحلقوا في سماء الفصحى، ألا

(١) سورة الأنفال آية: ٣١.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٣.

ولغتهم الأساسية لغة القرآن التي بها يتفاخرون ويتنافسون ويعقدون المنتديات ويجتمعون في المحافل ليستمعوا إلى أروع القصائد والخطب، ويصوغوا أجمل الألفاظ والعبارات ولم يكونوا في عجز من قدرتهم، بل كانت قدرة موفورة، واستطاعتهم مشهورة، وهم أصحاب العقل والذكاء، ومع ذلك فالقرآن دعاهم أن يستعينوا بمن شاءوا، ويكملوا ما ينقصهم بأهل الأديان، ويستحضروا عدتهم بالاتصال بالسحرة والكهان، وبمن شاءوا من طوائف الإنس والجن؛ فليس أمامهم إذن مانع، والنبي ﷺ لم يضرب لهم أجلًا للمعارضة ولم يحدد زمنًا للمناقضة، حتى لا يقول قائل منهم: إن الزمن لا يكفي وليس فيه سعة، كما أن القرآن لم ينزل جملة واحدة حتى يحتجوا بذلك، بل نزل مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة بين كل مجموعة وأخرى متسع للمعارضة وللإتيان بمثله لو كان في مقدورهم ذلك، فلما عجزوا دلَّ ذلك على أنه تنزيل من رب العباد، وكفى بذلك دليلًا وبرهانًا.

محاولات فاشلة للمعارضة

والآن أيها الإخوة الأعزاء جاء دور الضحك من الكافرين والاستهزاء بهم من محاولاتهم الفاشلة المضحكة؛ فقد أجمع رواة التاريخ والآثار على أن أعظم البلغاء وفحول الشعراء من مشركي العرب لم تحدثهم أنفسهم بمعارضة القرآن، ولم ينقل عن أحدٍ منهم أنه حاول أن يأتي بمعارضة للقرآن مع شدة حرصهم على صدِّ الناس عن الإسلام والتكذيب برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ..

ولكن نُقل عن بعض السفهاء الحمقى أنهم حاولوا معارضة القرآن فكان ما أتوا به لا يخرج عن أن يكون محاولات مضحكة أخجلتهم أمام البشر وجعلتهم أضحوكة لدى العقلاء، فباءوا بغضب من الله وسخط من الناس، وكان مصرعهم هذا كسبًا جديدًا للحق، وبرهانًا ناصعًا على أن القرآن كلام الله الذي لا يستطيع معارضته إنسان.

أمثلة:

ولنأخذ بعض الأمثلة من بعض الجهلاء لنعلم مدى إعجاز القرآن، ولنرى الفروق الشاسعة بين قول البشر وقول رب البشر.

(مسيلمة الكذاب)الذي ادعى النبوة وزعم أنه شريك لرسول الله في شأن النبوة، وقد كتب إليه في السنة العاشرة للهجرة يقول: «**أما بعد، فإني قد شوركت في الأرض معك، وإنما لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، لكن قريشًا قوم يعتدون..!**».

وقد زعم (مسيلمة) أن له قرآنًا نزل عليه من السماء، ويأتيه به ملك يسمى (رحمن) فقال هذا الكذاب «**والطاحنات طحنًا، والعاجنات عجنًا، والخابزات خبزًا، والثاردات ثردًا، واللاقمات لقمًا، وإهالة وسمنًا.. لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمقبر فآووه! والباغي فناوئوه**».

وقال: «**والشاء وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المذق فما لكم لا تمجعون**».

ومن قرآنه المفترى «**الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل**...»إلخ. وقوله «**يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين**».

وقد زعم أنه عارض سورة الكوثر فخرج إلى الناس بهذا الهذيان: «**إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر، إن شانئك هو الكافر**».

وكل كلامه- عليه لعنة الله- على هذا النمط واهٍ سخيف لا ينهض ولا يتماسك، وأنت خبير بأن مثل هذا الإسفاف ليس من المعارضة في قليل ولا كثير؛ يقول الرافعي رحمه الله: إن مسيلمة لم يرد أن يعرض للقرآن من ناحية (الصناعة البيانية) وإنما أراد أن يأخذ سبيله إلى استهواء قومه من ناحية أخرى ظنها أهون عليه وأقرب تأثيرًا في نفوسهم، وذلك أنه رأى العرب تعظم الكهان في الجاهلية، وكانت عامة أساليب الكهان من هذا السجع[1] القلق، الذي يزعمون أنه من كلام الجن مثل قولهم: «**يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح، يقول لا إله إلا الله**» فجعل يسجع ليوهم أنه يوحى إليه على أنه لم يفلح في هذه الحيلة إذ كان أشياعه

---

(١) السجع: اتفاق الحروف في نهايات الكلمات مثل «جليح، نجيح، فصيح».

يعرفونه بالكذب والحماقة، ويقولون: إنه لم يكن في تعاطيه الكهانة حاذقًا، ولا في دعوى النبوة صادقًا، وإنما كان اتباعهم إياه على حد قول قائلهم: كذاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مُضَر..».

(ب) «**الأسود العنسي**» ادَّعى النبوة في اليمن، وكان يزعم أن الوحي ينزل عليه فيخفض رأسه إلى الأرض ثم يرفعه فيقول: قال لي كذا وكذا- يعني شيطانه الذي يوحي إليه- وكان جبارًا ولكنه كان فصيحًا معروفًا بالكهانة والسجع والخطابة والشعر والنسب، ولم يُذكر أنه حاول المعارضة للقرآن الكريم، وإنما اكتفى بدعوى النبوة وبنزول الوحي عليه، وصدق قول الله فيه وفي أمثاله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ...﴾[1].

(ج) «**طليحة بن خويلد الأسدي**» ادعى النبوة، وكان يزعم أن «**ذا النون**» يأتيه بالوحي ولكنه لم يدَّعِ لنفسه قرآنًا لأن قومه كانوا من الفصحاء، ولكنهم تابعوه عصبية وطلبًا للجاه والشهرة، وقال أحد العلماء: إن له كلامًا كان يزعم أنه نزل عليه بالوحي ولم يظفر من كلامه إلا على هذه المقالة «**إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم، وقبح أدباركم شيئًا فاذكروا الله قيامًا، فإن الرغوة فوق الصريح**» يريد لا تركعوا ولا تسجدوا واكتفوا بالصلاة قيامًا وبذكر الله في حالة القيام، وقد أرسل له أبو بكر جيشًا بقيادة خالد بن الوليد فلما التقى الجمعان قتل

(١) سورة الأنعام آية: ١٢١.

عدد كبير من أتباعه، ثم انهزم طليحة ولحق بنواحي الشام، ويقال: إنه أسلم بعد ذلك وكان له في القادسية بلاء حسن.

(د) «**النضر بن الحارث**» وهو من زعماء قريش، ورؤساء الكفر والضلالة، وهو لم يدَّعِ النبوة ولا الوحي ولكنه زعم أنه يعارض القرآن؛ فَلَفَّق أخبارًا من حوادث الفرس وملوك العجم، وكان يجلس إلى قريش فيحدثهم بهذه الأساطير ثم يقول لهم: «**هذا خير مما أنزل على محمد**».

أخيرًا.

بعد هذا كله- أيها الإخوة الأحباب- نقول: قد رأينا أن كل من سولت له نفسه أن يعارض كتاب ربنا تأتي محاولته بالفشل الذريع المضحك؛ فكلام ربنا معجز لا يساويه أي إعجاز، ولقد تسابق الفصحاء والبلغاء والحكماء والشعراء في وصف هذا القرآن وسرد محاسنه وفضائله ولكننا لا نجد أبلغ ولا أسمى من وصف صاحب الرسالة محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه حيث قال: «**كتاب الله فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق**[1] **على كثرة الرد،**

(١) أي لا يبلى ولا تذهب جدته على كثرة القراءة والترداد.

ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا:﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾[1][2].

القرآن معجزة المصطفى صلى الله عليه وسلم الخالدة

أيها الأخوة الأماجد، والأخوات الحريصات على دينهن لتعلموا جميعًا أن كل معجزة جاء بها رسول أو نبي كانت تنتهي في زمانه إلا معجزة الحبيب صلوات الله وسلامه عليه؛ فقد جرت حكمة الله الأزلية أن يؤيد أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرات، والحجج والبراهين وذلك ليدل على أنهم أنبياء مرسلون من عند الله العلي القدير، وقد خص الله جل وعلا حبيبه ومصطفاه بالمعجزة العظمى وهي القرآن الكريم وهو النور الرباني والوحي السماوي، والذي أحيا أجيالًا كانت في عداد الموتى فأحياها الله بنور القرآن وانتشلها من الحضيض فجعلها خير أمة أخرجت للناس، وصدق الله حيث قال: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[3] لقد أحيا القرآن

(١) سورة الجن: ٢.

(٢) الحديث رواه الترمذي.

(٣) سورة الأنعام آية: ١٢٢.

أممًا وأوجد مجتمعًا، وألَّف جيلًا لم يعرف له التاريخ مثيلًا؛ فأخرج من العرب الذين كانوا رعاة الإبل والغنم سادة الشعوب والأمم، فملكهم الدنيا:

ومعجزات الأنبياء السابقين كانت حسية مشاهدة ولكن معجزة خير المرسلين كانت روحية عقلية، وقد خصه الله بالقرآن معجزة باقية على مر الأزمان ليراها ذوو القلوب والبصائر فيستنيروا بضيائها وينتفعوا بهديها في المستقبل والحاضر، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا»[1]. وبالفعل ذهبت المعجزات الحسية وانتهت مع أحداثها الكونية بل وتلاشت من الوجود بعد وفاة الأنبياء الكرام الذين أتوا بها فلم يعد لها وجود إلا معجزة القرآن الذي أخبر عنها فكان له الفضل الأعظم عليها سابقًا ولاحقًا.

وصدق الشاعر حيث قال:

جاء النبيون بالآيات فانصرمت[2] وجئتنا بكتاب غير منصرم
آياته كلما طال المدى جُددٌ يزينهن جمال العتق والقدم

(١) رواه البخاري.

(٢) انصرمت: مضت وذهبت بذهاب الأنبياء.

ونلفت النظر هنا إلى أن القرآن بما اشتمل عليه من المعجزات الكثيرة قد كتب له الخلود فلم يذهب بذهاب الأيام، ولم يمت بموت الرسول صلى الله عليه وسلم بل هو قائم على فم الدنيا يخرس كل مكذب، ويتحدى كل منكر، ويدعو أمم العالم جمعاء إلى ما فيه هداية الإسلام وسعادة بني الإنسان.

ومن هنا يظهر الفرق جليًّا بين معجزات نبي الإسلام ومعجزات إخوانه الأنبياء عليهم أزكى الصلاة وأتم التسليم، معجزات النبي محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن وحده آلاف مؤلفة وهي باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأما معجزات سائر الرسل فمحدودة العدد، قصيرة الأمد، ذهبت بذهاب زمانهم، وماتت بموتهم، ومن يطلبها الآن لا يجدها، ولا يسلم شاهد له بها إلا هذا القرآن، وتلك نعمة يمنها القرآن على سائر الكتب والرسل؛ قال جل شأنه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[1] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ

---

(١) سورة المائدة آية: ٤٨.

﴿أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾[1]

لهذا لم تكن معجزة سيد المرسلين معجزة حسية تقرع الحس وتستولي على النفوس، فلم تكن عصا تنقلب حية كعصا موسى أو نارًا تصير بردًا وسلامًا مثل النار التي ألقي فيها الخليل أو ناقة تخرج من صخر أصم كناقة صالح أو مريضًا يُشفى أو أعمى يبرأ كما فعل عيسى عليه السلام، وإنما كانت معجزة «**عقلية خالدة**» لأنها خاتمة الرسالات؛ فهي خالدة خلود الدهر باقية بقاء الإنسان.

ونسأل الله- جميعًا- أن يحفظ علينا قرآننا وكتابنا المجيد، وأن يجعله حجة لنا لا علينا.

شروط المعجزة

قد نبَّه العلماء الأجلاء على شروط المعجزة فقالوا: إنها خمسة، وإذا اختل شرط منها لا تكون معجزة:

الشرط الأول: أن تكون مما لا يقدر عليه إلا الله رب العالمين.

الشرط الثاني: أن تكون خارقة للعادة، وتكون مخالفة للسنن الكونية.

الشرط الثالث: أن يستشهد بها مدَّعي الرسالة على صدق دعواه.

الشرط الرابع: أن تقع على وفق دعوى النبي المتحدِّي بتلك المعجزة.

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٨٥.

الشرط الخامس: ألا يأتي أحد بمثل تلك المعجزة على وجه المعارضة.

هذه الشروط إن تحققت كان ذلك الأمر خارقًا للعادة ومعجزة دالة على نبوَّة صاحب الدعوى التي ظهرت المعجزة على يده، وإن لم تتحقق خرجت عن كونها معجزة ولم تدل على صدق صاحب الدعوى.

توضيح وشرح شروط المعجزة

أما الشرط الأول: فإنه لو أتى آتٍ في زمن يصح فيه مجيء الرسل، وادعى الرسالة وجعل معجزته أن يقوم ويقعد، ويأكل ويشرب، ويتحرك إلى مكان آخر- لم يكن هذا الذي ادعاه معجزة ولا دالًّا على صدقه لقدرة الخلق على مثله، وإنما تكون المعجزة مما لا يقدر عليه البشر القمر، وإحياء الموتى. وانقلاب العصا حية...إلخ.

الثاني: وهو خرق العادة فلو قال المدعي للنبوة: معجزتي أن تطلع الشمس من المشرق وتغرب من المغرب وأن يأتي النهار بعد الليل- لم يكن فيما ادعاه معجزة؛ لأن هذه الأمور وإن كان لا يقدر عليها إلا الله لكنها لم تُفْعَل من أجله، وقد كانت من قبله فليس فيها دلالة على صدق دعواه.

الثالث: وهو أن يستشهد بها مدعي النبوة وتحصل عند طلبها تصديقًا لدعواه؛ فلو ادَّعى إنسان أن معجزته أن ينقلب الجماد إلى حيوان أو إنسان ولم ينقلب لا يدل ذلك على صدقه.

الرابع: أن تقع المعجزة على وفق الدعوى، وليس على خلافها لأنها حينذاك تكون تكذيبًا له؛ روي أن «**مسيلمة الكذاب**» -لعنه الله- طلب منه أصحابه أن يتفل[1] في بئر ليكثر فيها الماء فذهب البئر فدل ذلك على كذبه.

الخامس: ألا تُعارَض المعجزة؛ فإن عورضت بطل كونها معجزة ولم تدل على صدق صاحبها؛ فلو استطاع أحد شق القمر أو إحياء الموتى لم تعد معجزة؛ ولهذا قال تعالى في خطاب المشركين: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَـٰدِقِينَ﴾[2].

بِمَ كان إعجاز القرآن؟

القرآن الكريم كلام الله المعجز للخلق في أسلوبه ونظمه، وفي روعته وبيانه، وفي علومه وحكمه، وفي تأثير هدايته، وفي كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلية، ولقد تكلم العلماء في محاولة كشف أسرار وجوه إعجاز القرآن بعد أن ثبتت عندهم بالوجدان والبرهان، وقد أجمع أهل العربية جميعًا وأهل اللسان منهم والبيان على أن القرآن معجز بذاته أي أن إعجازه إنما كان بفصاحة ألفاظه، وروعة بيانه، وأسلوبه الفريد الذي لا يشابهه فيه أسلوب لا من نثر ولا من شعر، ومسحته اللفظية الخلابة التي تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي وبراعته الفنية.

---

(١) يتفل: يبصق.

(٢) سورة الطور آية: ٣٤.

وأخيرًا أيها الأعزاء نوضح باختصار وجوه إعجاز القرآن العظيم وهي كالتالي:

١ـ النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب.

٢ـ الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب العربية.

٣ـ الجزالة[١] التي لا يمكن لمخلوق أن يأتي بها.

٤ـ التشريع الدقيق الكامل الذي يتفوق على كل تشريع من وضع البشر.

٥ـ الإخبار عن المغيبات التي لا تعرف إلا بطريق الوحي.

٦ـ عدم التعارض مع العلوم الكونية المقطوع بصحتها.

٧ـ الوفاء بكل ما أخبر عنه القرآن الكريم من وعد ووعيد.

٨ـ العلوم والمعارف التي اشتمل عليها (العلوم الشرعية والعلوم الكونية).

٩ـ وفاؤه بحاجات البشر.

١٠ـ تأثيره في قلوب الأتباع والأعداء.

* وأختم بمسك الختام قول الحق جل وعلا: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[٢].

---

(١) الجزالة: قوة الألفاظ واستحكامها.

(٢) سورة الحشر آية: ٢١.

_

أوجه الإعجاز

الفصل الأول

الإعجاز بالصرفة

أول الوجوه التي حددها العلماء للإعجاز القرآني- في القرنين الثاني والثالث- هو الإعجاز بالصرفة:

فقد ذهب بعض المعتزلة[1] إلى أن إعجاز القرآن إنما كان بـ(الصرفة) بمعنى أن الله تعالى صرف البشر عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، وخلق فيهم العجز عن محاكاته[2] في أنفسهم ولولا أن الله صرفهم عن ذلك لاستطاعوا أن يأتوا بمثل القرآن، وهذا قول ساقط مخالف لما أجمع عليه العلماء والفصحاء والبلغاء في القديم والحديث.

ولو كان الأمر كما زعموا لم يكن الإعجاز للقرآن بل هو لله، وقد قال الله تعالى: ﴿ **قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ** ﴾[3] ولو كان الاجتماع مع سلب قدرة المجتمعين لم تكن للدعوة إليه فائدة، وهذا باطل.

---

(١) المعتزلة: فرقة نشأت في أوائل القرن الثاني الهجري في العصر الأموي بمدينة البصرة وكانوا يعتمدون في الاستدلال على عقائدهم بالقضايا العقلية.

(٢) محاكاته: تقليده.

(٣) سورة الإسراء آية: ٨٨.

والقول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[1].

وهذا زعم باطل رده الله على أهله وأكذبهم فيه، وجعل القول به ضربًا من العمى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝﴾[2].

ونقول: إن القرآن العظيم- وهو كلام الله- لا يمكن أن يوازن به كلام فهو معجز في ذاته ولو كان قد أعجز الناس بقوة خارجة عنه لـَمَـا كـان كـلام الله ولـَمَـا كان معجزة، وإنما كانت الصرفة هي المعجزة التي استند إليها، ولكان بهذا من المعجزات الحسية التي تذهل حواس الناس وعقولهم فتصيبهم بالشلل العقلي والحسي معًا، ولو كان القرآن على تلك الصفة لكان للعرب فيه قول غير الذي قالوا فيه، ولما أخذتهم منه هذه الروعة التي جاءتهم منه حين سمعوه وعقلوه.

والقول بالصرفة قول لا معقول له إذ كيف يقف العرب أمام آيات القرآن هذه السنين الطويلة وهم يَنْظِمون خلالها شعرًا ويقولون نثرًا، وكان شعرهم ونثرهم لا يقل روعة وجمالًا عما كان لهم من ذلك كله في جاهليتهم (أي قبل مجيء الإسلام)؟! كيف يقف العرب أمام آيات القرآن مئات السنين وهم يجدون قواهم كاملة وملكاتهم التي كانت لهم لم يذهب منها شيء، ثم يقال بعد هذا إن

(١) سورة المدثر آية: ٢٤.

(٢) سورة الطور آية: ١٥.

قوة قاهرة غير منظورة قد أمسكت بهم وصرفتهم عن أن يتصدوا للقرآن ويعرضوا له؟



الفصل الثاني

الإعجاز اللفظي

من أوجه إعجاز القرآن اختياره الألفاظ التي لا يصح استبدالها بغيرها في حديث القرآن عن التشريع والطب والهداية والتاريخ وفي جميع المجالات عامة، وهو أمر لا يستطيع شخص واحد ولا جماعة واحدة في زمن واحد أن يلم بجميع جوانبه وإنما كل جيل يكشف ما لم يخطر على بال الجيل الذي كان قبله، وهكذا فإن عطاء القرآن مستمر لا ينفذ، وفي هذا أكبر دليل على أنه ليس من كلام البشر.

من ذلك على سبيل المثال: أن ما ذكره القرآن من مراحل تطور الجنين في الرحم هي التي انتهى إليها العلم مما لم يكن معروفًا قبل هذا العصر مما دعا علماء أجانب إلى أن يعلنوا إسلامهم، وليس ذلك فقط، بل إن اختيار تعبير (العلقة) و(المضغة) – مثلًا – أعجب اختيار علمي؛ فاختيار التعبير بـ (العلقة) اختيار له دلالته؛ فإن المخلوق في هذه المرحلة أشبه شيء بالعلقة وهي الطفيلية المعروفة، وكذلك التعبير بـ(المضغة)؛ فالمضغة كما في كتب التفسير: هي القطعة من اللحم قدر ما يمضغ الماضغ، ولكن لاختيار كلمة (مضغة) سبب آخر؛ ذلك أن المضغة هي قطعة اللحم الممضوغة أي التي مضغتها الأسنان، وقد أثبت العلم الحديث أن الجنين في هذه المرحلة ليس قطعة لحم عادية بل هو كقطعة اللحم التي مضغتها الأسنان؛ فاختيار لفظ (المضغة) اختيار علمي دقيق، ونجد إعجازًا

لفظيًّا آخر فيما توصل إليه علم التاريخ، ويتجلى ذلك في اختيار التعبير القرآني لبعض الكلمات التاريخية كـ (العزيز) في قصة يوسف، وكاختيار تعبير (الملك) في القصة نفسها، واختيار كلمة (فرعون) في قصة موسى؛ فهذه ترجمات دقيقة لما كان يُستعمل في تلك الأزمان السحيقة فـ (العزيز) أدق ترجمة لمن يقوم بذلك المنصب في زمنه، والمصريون القدامى كانوا يفرقون بين الملوك الذين يحكمونهم فيما إذا كانوا مصريين أو غير مصريين، فالملك غير المصري الأصل كانوا يسمونه (الملك)، والمصري الأصل يسمونه (فرعون)، والذي كان يحكم مصر في زمن يوسف غير مصري، وهو من الهكسوس فسماه (الملك)، والذي كان يحكمها في زمن موسى هو مصري فسماه (فرعون)؛ فسمى كل واحد بما كان يُسمى في الأزمنة البعيدة، وهناك من الإشارات الإعجازية في مختلف العلوم كما في أسرار البحار والضغط الجوي وتوسع الكون وبداية الخلق ما دعا كثيرًا من الشخصيات العلمية إلى إعلان إسلامهم. بل إن هناك أمورًا لم تُعرف إلا بعد صعود الإنسان في الفضاء واختراقه الغلاف الجوي للأرض، وقد أشار إليه القرآن إشارات في غاية العجب ذلك أن الإنسان إذا اخترق الغلاف الجوي للأرض وجد نفسه في ظلام شديد وليل مستديم ولم تُرَ الشمس إلا كبقية النجوم التي نراها في الليل؛ فالنهار الذي نعرفه نحن لا يتعدى حدود الغلاف الجوي فإن تجاوزناه كنا في ظلام لا يعقبه نهار، وقد أشار إلى ذلك القرآن إشارة

عجيبة في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾[1] فجعل النهار كالجلد الذي يُسلخ، وأما الليل فهو الأصل، وهو الكل، فشبَّه الليل بالذبيحة، والنهار جلدها، فإن سُلخ الجلد ظهر الليل فجعل النهار غلافًا والليل هو الأصل، وقال: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[2] أي لو مكّناهم من الصعود إلى السماء لانتهوا إلى ظلام وقالوا (سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا).

وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام إطلاقًا إلا في موقعها فيه، وهي كلمة (ضيزى) في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾[3] ولو أرادت اللغة العربية غيرها ما صلح غيرها في هذا الموضع؛ فإن سورة النجم- التي هذه الآية منها- كل فواصلها على الياء فجاءت الكلمة (ضيزى) فاصلة من الفواصل ثم هي الإنكار على العرب إذا وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله مع أنهم يدفنون البنات أحياءً فقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ

(١) يس: ٣٧.

(٢) الحجر: ١٤-١٥.

(٣) النجم: ٢٢.

ضِيزَىٰٓ ﴾[1] فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكذلك لفظ (الكوب) استعملت في القرآن مجموعة ولم يأت بها مفردة لأنه لا يظهر فيها عند النطق من الرقة وحسن التناسب كلفظ (أكواب) الذي هو الجمع وعكس ذلك لفظة (الأرض) فإنها لم ترد في القرآن إلا مفردة ولم يرد في القرآن صيغة الجمع (أرضين) ولما أراد الله جمعها أخرجها على صورة رائعة وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾[2] ولم يقل: (وسبع أرضين) لهذا الثقل الذي يدخل به النظم، وغير ذلك.

وعلى هذا فالإعجاز القرآني متعدد النواحي متشعب الاتجاهات ولا يزال الناس يكتشفون من مظاهر إعجازه الشيء الكثير؛ فلا شك أن نقول إذن: إن الإعجاز أكبر مما ينهض له واحد أو جماعة في زمن ما، إن التعبير الواحد قد ترى فيه إعجازًا لغويًّا جماليًّا، وترى فيه- في الوقت نفسه- إعجازًا علميًّا، أو إعجازًا تاريخيًّا، أو إعجازًا نفسيًّا، أو إعجازًا تربويًّا، أو إعجازًا تشريعيًّا، أو غير ذلك فيأتي اللغوي ليبيِّن مظاهر إعجازه اللغوي وأنه لا يمكن استبدال كلمة بأخرى، ولا تقديم ما أُخِّر ولا تأخير ما قُدِّم، أو توكيد ما نُزع منه التوكيد أو عدم توكيد

---

(١) النجم: ٢١-٢٢.

(٢) الطلاق: ١٢.

ما أُكِّد، ويأتيك العالم في الطب ليقول من وجهـة نظـر الطـب ألطـف وأدق ممـا يقوله اللغوي، ويأتيك العالم في التشريع ليقول مثل ذلك من وجهة نظر التشريع والقانون، ويأتيك المؤرخ ليقول مثل ذلـك مـن وجهـة نظـر التـاريخ، ويأتيـك صاحب كل علم ليقول مثل ذلك من وجهة نظر علمه.

إننا نلفت النظر إلى شيء من مواطن الجمال في التعبير القرآني الرفيـع الرائـع، ونوضح شيئًا من سمو هذا التعبير ومع ذلك نقول: إن هـذا شيء مـن شيء مـن إعجاز القرآن يدل على أن هذا القرآن ليس كلامًـا عاديًّـا بـل معجـزة إلهيـة بـلا جدال ولا شك، وتدل على أن القرآن العظيم كلام وضع وضعًا دقيقًا، وصـاغه المولى سبحانه صياغة محكمة لا مثيـل لهـا ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا** ﴾[1].

---

(١) النساء: ٨٢.



الفصل الثالث

الإعجاز في إتيان الحرف الواحد في موضعه

ومما يدل على إعجاز القرآن أن القرآن يحذف من الكلمة لغرض ويضيف إليها لغرض ويُقدِّم ويؤخر لغرض؛ فالتعبير القرآني تعبير فني رائع مقصود؛ كل كلمة وكل حرف إنما وضع لقصد ولم يأتِ اعتباطًا أو عبثًا، ومن الأمثلة على ذلك:

أنه يحذف من الفعل للدلالة على أن الحدث أقل مما لم يحذف منه وأن زمنه أقصر؛ فهو يقتطع من الفعل للدلالة على الاقتطاع من الحدث أو يحذف منه في مقام الإيجاز والاختصار؛ فإذا كان المقام مقام إيجاز أوجز في ذكر الفعل فاقتطع منه، وإذا كان في مقام التفصيل لم يقتطع من الفعل بل ذكره بأوفى صورة.

ومن ذلك **(اسطاعوا) و(استطاعوا)**

قال تعالى: ﴿ **فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا** ﴾[1] الظهور: الصعود، النقب: كسر الردم (السد)، وذلك في السد الذي صنعه ذو القرنين من الحديد والنحاس، فالصعود على هذا السد أيسر وأسهل من إحداث النقْب فيه لمرور الجيش؛ فحذف من الحدث الخفيف فقال: ﴿ **فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ** ﴾

(١) الكهف: ٩٧.

بخلاف الفعل الشاق الطويل فإنه لم يحذف بل أعطاه أطول صيغة له فقال: ﴿وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾.

ثم إنه لما كان الصعود على السد يتطلب زمنًا أقصر من إحداث النقب فيه حذف من الفعل وقصّر منه ليناسب النطق الزمن الذي يتطلبه كل حدث.

ومن ذلك (تتوفاهم) و(تَوفّاهم).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ﴾[1].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

---

(١) النساء: ٩٧-٩٩.

(٢) النحل: ٢٧-٢٨.

فقال في آية النساء: (توفّاهم) بحذف إحدى التاءين، وقال في سورة النحل: (تتوفاهم) بدون حذف؛ ذلك أن المتوَفَّيْن في (سورة النساء) هم جزء من الذين هم في (النحل) فالذين في (النحل) هم الذين ظلموا أنفسهم من الكافرين على وجه العموم.

وأما الذين في (النساء) فهم المستضعفون منهم، فهم قسم منهم؛ فلما كان هؤلاء أقل حذف من الفعل إشارة إلى الاقتطاع من الحَدَث وإلى قلته بالنسبة إلى الآخرين؛ فقال في القسم الأكبر (تتوفاهم) وقال في القسم القليل (توفّاهم) بحذف إحدى التاءين فناسب بين الفعل وكثرة الحدث.

ومن ذلك (تتبدل) و(تبدَّل)

قال تعالى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ ﴾[1].

وقال: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴾[2].

فقال في آية الأحزاب (تبدَّل) بحذف إحدى التاءين، وقال في آية النساء: (ولا تتبدلوا) بدون حذف؛ لأن آية الأحزاب حكمها مقصور على الرسول ﷺ فهو منهي عن أن يتبدل بأزواجه أزواجًا أخرى.

---

(١) الأحزاب: ٥٢.

(٢) النساء: ٢.

أما الآية الثانية فحكمها عام للمسلمين.

ففي الحكم المقصور على شخص واحد قال: (تبدَّل) بالحذف من الفعل، وقال في الحكم العام: (تتبدَّلوا).

ومن الذكر والحذف في الفعل قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾[1] بحذف الياء من الفعل وقوله: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾[2] بعدم الحذف، وذلك أن الحدث مختلف في الآيتين.

قال تعالى في سورة الكهف: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[3] فنسيان الحوت ليس هو ما يبغيه[4] موسى حقيقةً وإنما يبغي الشخص الذي يريد موسى أن يتعلم منه، وهو الخضر عليه السلام.

وأما في سورة يوسف فالطعام هو ما يبغون وهو سبب رحلتهم إلى مصر؛ ففرَّق بينهما؛ فلما كان ما في سورة الكهف ليس هو ما يبغون حذف من الحدث

---

(١)الكهف ٦٤.

(٢) يوسف ٦٥.

(٣) الكهف: ٦٤.

(٤) يبغيه: يريده.

إشارة إلى عدم إرادة هذا الحدث على وجه التمام، وإنما هـو علامـة عـلى الموضـع الذي يجدون فيه ما يريدون.

ولما كان ما في سورة يوسف هو بغيتهم ذكر الفعل كاملًا ولم يحذف منه.

ومن ذلك ذكر حرف المد (الألف) في فواصل قسم من الآيات وعـدم ذكـره في مواضع أخرى وفق ما يقتضيه المقـام، وذلـك نحـو قولـه تعـالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[1] بمد (الرسـول) و(الـسبيل) مـع أن القياس لا يقتضي المد وهو لم يمـد (الـسبيل) في أول الـسورة وإنـما قـال: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[2] والفرق بينهما أن آيتي المد هما من قـول أهـل النار وهم يصطرخون فيها ويمدون أصواتهم بالبكـاء فالمقـام هنـا مقـام صراخ ومد صوت فناسب المد، والآية الأخرى ليست كذلك وإنما هـي قـول الله يقـرر فيه حقائق معلومة، قال تعـالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[3] .

فالمقام لا يقتضي المد هاهنا بخلاف ذاك.

---

(١) الأحزاب ٦٦-٦٧.

(٢) الأحزاب: ٤.

(٣) الأحزاب: ٤.

وقد يستعمل كلمة في موضع ثم يستعملها في موضع آخر مبدلًا فيها حرف، وذلك نحو: (مكة) و(بكة) فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [1].

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [2].

فقال في آية آل عمران (بكة) وقال في سورة الفتح: (مكة)، وسبب ذلك أن في سورة آل عمران الآية في سياق الحج: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [3] فجاء بالاسم (بكة) من لفظ (البك) الدال على الزحام لأن في الحج يبك الناس بعضهم بعضًا، أي: يزحم بعضهم بعضًا، وسميت (بكة) لأنهم يزدحمون فيها.

ومن المواضع التي يظهر فيها روعة التعبير القرآني.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [4].

---

(١) آل عمران ٩٦-٩٧.

(٢) الفتح ٢٤.

(٣) آل عمران: ٩٧.

(٤) الأعراف: ٧٧.

وقوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾[1].

وقوله: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾[2].

فحيث ذكر الصيحة جمع الدار وحيث ذكر الرجفة- وهي الزلزلة الشديدة- وحّد الدار، وذلك لأن الصيحة تبلغ أكثر مما تبلغ الرجفة فالرجفة تختص بجزء من الأرض، أما الصيحة فإنها يبلغ صوتها مساحة أكبر من مساحة الرجفة؛ فلذلك وحّد مع الرجفة وجمع مع الصيحة.

ومن ذلك ذكر ياء المتكلم أو حذفها

كما في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾[3].

وقوله: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[4].

فقد حذف ياء الضمير واكتفى بالكسرة في سورة الكهف فقال: (يهدينِ) وأظهر الضمير في سورة القصص فقال: (يهديني) وذلك أن المقام يستدعي إظهار ياء المتكلم لأنه مقام التجاء وخشية، والخوف يستدعي أن يلصق الإنسان بمن يحميه ويلقي بنفسه كلها عليه، ويستدعي أن يلتجئ إلى من ينصره ويأخذ بيده بكل أحاسيسه التجاء كاملًا؛ فقد خرج موسى خائفًا هاربًا من بطش

(١) هود ٦٧.

(٢) هود: ٩٤.

(٣) الكهف: ٢٤.

(٤) القصص: ٢٢.

فرعون فالتجأ إلى الله التجاء الخائف طالبًا منه أن يهديه سواء السبيل؛ ولذلك أظهر الياء دلالة على كمال الالتجاء وتمام الخضوع، بخلاف ما في سورة الكهف فإنه ليس المقام كذلك؛ فإنه قال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾[1].

فهناك فرق بين المقامين فمقام موسى في سورة القصص يستدعي إلقاء النفس كلها أمام ربه، ولما كان الخائف يطلب أولًا من يحميه ويلجأ إليه قدَّم (الرب) على فعل الهداية لأنه هو الملجأ فقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

بخلاف ما في سورة الكهف فإن المقام فيها مقام ذكر القول الحق فيما اختلفت فيه الأقوال، وبيان الأمر الصحيح فيما تعددت فيه الآراء، وهذا أمر يحتاج إلى الهداية والرشد فقدَّم الهداية، وهذا من دقيق الاستعمال.

وإذا مضينا نذكر أمثلة على هذا التعبير القرآني المعجز لذكرنا مئات الأمثلة فإن كل جملة من جمل القرآن لا تخلو من أسرار تبين إعجاز هذا الكلام الإلهي الذي لا يستطيع الفصحاء الإتيان بمثل آية منه في جلاله وفصاحته وبلاغته.

---

(١) الكهف: ٢٣- ٢٤.

الفصل الرابع

الإعجاز في نغم القرآن

لأسلوب القرآن حلاوة تأخذ بالألباب وتستهوي الأفئدة فلا تلبث آيات القرآن أن تأخذ طريقها إلى القلوب في إيقاع ندي ونغم رائع، ولقد سمع القرآن الوليد بن الغيرة وهو كافر فرجع إلى قومه قائلًا: «**لقد سمعت من محمد قولًا ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما يقول هذا بشر**».

ونستطيع أن نتبين هذا الإعجاز في جميع آيات القرآن وكلماته؛ فكل كلمة قد وضعت في مكانها وكل حرف قد صادف موقعه، ففي سورة الرحمن مثلًا إذا بدأنا القراءة فيها ثم مضينا في القراءة وأمعنا النظر في جمال عرضها وتناسق أفكارها وتسلسل معانيها لأخذتنا الدهشة والانبهار.

﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[1].

فقرات قصيرة، وصوت عذب ونشيد إلهي ومعانٍ إلهية راقية تأخذ طريقها إلى القلوب في أسلوب إيقاعي تبهرك موسيقاه وتستولي على الوجدان والشعور أنغامه وألحانه؛ فهو السحر بعينه الذي جمع بين مزايا النثر والشعر كليهما وما هو بالشعر ولا النثر، فلا تجد في السورة قيود الشعر بل تجد حرية التعبير وجمال

---

(١) الرحمن: ١-٤.

التصوير الرائع الذي يعرض مظاهر الكون وحقائق الوجود، ويتحدث عن القيامة وأهوالها والجنة ونعيمها والنار وعذابها في مشهد متحرك فإذا الغائب حاضر وإذا النفس سائرة مع الآيات تتأمل نعم الرحمن في خلق الإنسان وتسخير الشمس والقمر، وبعد كل نعمة من نعم الله يعقب الرحمن بهذه الآية الكريمة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

فلا يملك الإنسان إلا أن يسجد عقله ويخشع قلبه وأن يزداد يقينه وأن ينطلق قلبه ولسانه قائلًا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب.

وقد تميز القرآن على الشعر والنثر والسجع فتحلى بمزاياها وتخلص من قيودها.

والقرآن نسيج واحد في بلاغته وسحر بيانه إلا أنه متنوع تنوع موسيقى الوجود في أنغامه وألحانه، وهذه الموسيقى الداخلية تنبعث في القرآن حتى من اللفظة المفردة في كل آية من آياته فتكاد تستقل؛ فنرى اللون الزاهي في نضرة الوجوه السعيدة الناظرة إلى ربها ونرى اللون المتجهم الكئيب من سواد الوجوه الشقية الهالكة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾[1] لقد رسمت الآيات لوحة

---

(١) القيامة: ٢٢-٢٥.

للسعداء بلفظة (ناضرة) بتصوير أبهى لون، كما رسمت لوحة للأشقياء بلفظة (باسرة)[1] وذلك برسم أبغض لون.

وتقرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[2] فلا ترى في ألفاظ اللغة غير كلمة «**زحزح**» تصور مشهد الإبعاد والتنحية بكل ما يقع في هذا المشهد من أصوات وما يصاحبه من ذعر الذي يمر بحسيس النار وصوتها ويسمعه ويكاد يمسها!

وإنك لتشعر بالغيظ مثل ما يأخذ جهنم من الغيظ حين تستمع إلى لفظ «**تميز**» في قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[3]. وذلك لأن معنى «**تكاد تميز من الغيظ**» تكاد تتقطع من الغيظ غضبًا على الكفار.

ويستولي على قارئ القرآن القلق والخوف وهو يكرر هاء السكت في أكثر نهايات كلمات من أوتي كتابه بشماله؛ فيظل القارئ من الآيات في قلق شديد.

وإن النفس لتشمئز من حال الكافر الذي يتجرع صديده ولا يكاد يسيغه أي: يبتلعه مرة بعد مرة لمرارته ولا يقارب بلعه لقبحه ومرارته، وذلك في قوله تعالى:

---

(١) أي كالحة عابسة وذلك علامة الشقاء.

(٢) آلا عمران: ١٨٥.

(٣) الملك: ٨.

﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ [1] فتستشعر في لفظ «التجرع» ثقلًا وبطأً يدعوان إلى التقزز.

كما يحس قارئ القرآن بعنف لفظة (الكبكبة) في قول الله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ [2] حتى لتكاد تتصور أولئك المجرمين يكبون على وجوههم ويُلقون إلقاء المهملات فلا يهتم بهم أحد.

فنحن نرى في اللفظة الواحدة تعبيرًا عن لوحة كاملة، فما بالنا بالآية التي تتناسق في جوِّها الكلمات أو في السورة الكاملة التي تنسجم حول فكرتها جميع آيات السورة.

فمن يقرأ قوله تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ [3] يتخيل في جو هذه الآية وحدها الشواظ الناري يتطاير والنحاس الملتهب يذوب فوق رءوس الكافرين.

بل نجد في سور كاملة طويلة أو قصيرة النسق الرائع العجيب والإيقاع الساحر من أولها إلى آخرها كما في سورة الرحمن؛ فإيقاعها منساب من مطلعها

---

(١) إبراهيم: ١٧.

(٢) الشعراء: ٩٤.

(٣) الرحمن: ٣٥.

إلى ختامها وفي ألفاظها وحروفها حتى لو اخترنا مقطعًا واحدًا على حدة من مقاطعها أو موضوعًا واحدًا من موضوعاتها لكان في كل جزء منه نغمة وفي كل حرف منه لحن سماوي.

ومن أكثر المواطن التي نستشعر فيها سحر نغم القرآن آيات الدعاء، ففي دعاء سيدنا زكريا مثلًا نتصور نورًا نشعر فيه بتأجج العاطفة وطول النَّفَس تتجاوب أصداء كلماته الصادقة في أعماق الوجدان؛ فسيدنا زكريا يحرك القلوب بدعائه حين يعبر عن حزنه خوفًا من انقطاع نسله وانقطاع ميراث النبوة، يدعو ربه وهو قائم يصلي في المحراب ينادي ربه نداء خفيًّا يقول في خشوع: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[1] فيعجز المرء عن وصف العذوبة الملحوظة في فاصلة كل آية فهذا النداء متناسق غاية التناسق، ونتصور جماعة من الصالحين مخلصين وصفهم الله بأنهم من أصحاب العقول والبصائر قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2] نتصورهم يشتركون جميعًا ذكرانًا وإناثًا صغارًا وكبارًا بأصوات خاشعة متناسقة وهي تلجأ إلى الله وتنشد هذا

---

(١) مريم...

(٢) آل عمران: ١٩١.

النشيد الجليل: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[1].

إن في تكرار عبارة (ربنا) ما يلين القلب ويدل على الشوق إلى الله والإيمان الراسخ به، وفي الوقوف على حرف الراء المسبوقة بالألف ما يحدث أعذب النغمات.

ومما يدل على تنوع النغمات واختلافها باختلاف المقام الذي ترد فيه هذا الصَّخَب العالي في دعاء سيدنا نوح عليه السلام؛ فسيدنا نوح أخذ يدعو قومه ليلًا ونهارًا إلى عبادة الله وحده وفعل الصالحات وينصحهم سرًّا وعلانية وهم يصرون على كفرهم وعنادهم ولا يزدادون إلا ضلالًا واستكبارًا؛ فما كان من سيدنا نوح إلا أن يئس منهم فدعا عليهم بكلمات تعبر عن الثورة والغضب أوردها سبحانه وتعالى بموسيقى وهيبة وإيقاع عنيف، فحين نسمعه نتخيل هياج البحار ودك الجبال وغضب الأرض والسماء قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟

(١) آل عمران ١٩١-١٩٤.

إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾[1].

ونشعر بحناجر مكبوتة يتركها القرآن تطلق أصواتها الحبيسة- بكل كربها وضيقها- فهي حناجر الكافرين النادمين على كفرهم بيوم الحساب؛ نتخيل مجموعات وهم يعذبون في النيران فيتحسرون ويحاولون التنفيس عن كربهم وغمهم ببعض أصوات متقطعة لاهثة كأنهم يتخففون بها مما يعانون من العذاب.

(١) نوح: ٢٦-٢٨.



الفصل الخامس

الإعجاز الفني التصويري

يقولـــون: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾[1].

ويطول بنا المقام إذا استعرضنا جميع النماذج التي تدل على الإيقاع القرآني العجيب في جميع آيات القرآن.

وكما رأينا فإن شأن الإيقاع في القرآن ليست الفاصلة فيه كقافية الشعر وليس فيه حشو ولا تطويل بل الفاصلة القرآنية طليقة من كل القيود، يوردها الله تعالى بأسلوب يؤدي غرضه على أكمل وجه يلين أويشتد ينساب كالماء الرقراق أو يعصف كأنه رياح عاتية.

مما يدل على أنه كلام ليس ككل الكلام بل هو كلام الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ

---

(١) الأحزاب: ٦٧- ٦٨.

وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ﴾[1].

في هذه الآيات الكريمات صورة فنية رائعة ممتدة الأبعاد متعددة الظلال والألوان تجمع في إطار واحد أحداثًا مثيرة تصل ما بين آخر أيام الدنيا وأول أيام الآخرة؛ يبدأ هذا المشهد القرآني بالنفخ في الصور (البوق) وحمل الأرض والجبال ودكها دكة واحدة؛ أي دقها ونسفها، ثم يتبع ذلك تصدع السماء ووقوف الملائكة على أطراف السماء ونواحيها ثم الحساب؛ فينقسم الناس بعده إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في الجحيم.

---

(١) الحاقة: ١٣-٣٧.

وبالتأمل في هذا المشهد نجد العديد من الخصائص الفنية نقتصر على خاصية واحدة منها وهي إحاطة كل مشهد من مشاهد هذا الحدث بإطار من العبارة المنسقة الملائمة على نحو يوحي بالجو الشعوري السائد فيه، وذلك في المشاهد الثلاثة:

المشهد الأول: مشهد الانقلاب المدمر الذي تتحول فيه الصورة بين لحظة وأخرى من النقيض إلى النقيض؛ هذا الانقلاب المدمر الذي يصوره هذا المشهد القرآني يقع في جو من الشعور بالشدة والقوة والسرعة والحسم، وهذا ما يوضحه قوله تعالى: (نفخة واحدة)، (دكة واحدة)، (وقعت الواقعة).

المشهد الثاني: مشهد التمييز بين فريقين: فريق السعادة وفريق الشقاء والهلاك وتحديد مصير كل منهما؛ ففي هذا المشهد يسود جو السعادة والبهجة وذلك في جانب فريق أهل الجنة، ويسود أيضًا جو الحسرة والندامة في جانب فريق أهل النار، ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾[1].

---

(١) الحاقة: ١٩-٢٩.

ففي **الجانب الأول** تبدو العبارة تفيض بالسعادة والسرور وتفور بالبهجة (هاؤم اقرءوا كتابيه.. عيشة راضية.. جنة عالية).

وفي **الجانب المقابل** ترى الحسرة والندامة تظهران في قوله تعالى: (يا ليتني) (يا ليتها) (ما أغنى عني) (هلك عني) حتى ليكاد القارئ يرى من أُوتي كتابه بشماله وهو يلطم خديه بكلتا يديه.

وأما قافية الآيات، وهي الهاء الساكنة فإنها تشعر عند خروجها من صدور قارئها بالفرحة والسعادة التي تملأ جنبات النفس، كما أنها على الجانب الآخر تحمل زفرات الأسى وحرارة الندم اللذين يملأان الصدر ويذيقان النفس الهم والغم.

أما المشهد الثالث: فيبدو فيه مشهد العقاب مصحوبًا ببيان الأسباب والحيثيات التي تؤلم النفس وتعذب الضمير أكثر من العذاب ذاته، كل ذلك في جو من العنف والغلظة وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ **خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ** ﴾[1].

(١) الحاقة: ٣٠-٣٧.

وبالنظر في هذه المدود في نهايات الفواصل في هذه الآيات نشعر وكأن قوى الدنيا والآخرة تريد أن تتسابق لتنفيذ أمر الله الصادر بشأن من أوتي كتابه بشماله تريد أن تعتقله وتدفعه إلى مصيره الذي يستحقه.

ويتضح في هذه المشاهد الثلاثة قوة التصوير القرآني ومدى تأثيره في النفس في إيصال المعاني التي يهدف إلى إيصالها بطريقة لا يستطيع بشر أن يأتي بمثلها.

والتصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسوسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة، فمن المعاني الذهنية التي تخرج في صورة حسية:

أـ يريد أن يبين الله تعالى أن الذين كفروا ليس لهم قبول عند الله ولن يدخلوا الجنة إطلاقًا فهذا أمر مستحيل؛ هذه هي الطريقة الذهنية للتعبير عن هذه المعاني المجردة فيعرضها القرآن في الصورة الآتية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾[1] فنحن نتخيل صورة تفتح أبواب السماء وصورة دخول الحبل

(١) الأعراف: ٤٠.

الغليظ في سم الخياط[1] ويختار من أسماء الحبل الغليظ اسم (الجمل) خاصة، ويدع للحس أن يتأثر عن طريق التخيل بالصورتين ما شاء له التأثر؛ ليستقر في النهاية معنى استحالة القبول واستحالة دخول الجنة في أعماق النفس، وقد استقر ذلك المعنى عن طريق العين والحس- تخيلًا-.

٢ـ ويريد أن يبين أن الذي يشرك بالله لا جذور له ولا بقاء ولا استقرار؛ يمثل لمعنى الضياع هذا بصورة سريعة الخطوات عنيفة الحركات عميقة التأثير يقول تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[2] هكذا في ومضة سريعة ولمحة خاطفة يخر من السماء (يسقط) من حيث لا يدري أحد فلا يستقر على الأرض لحظة أن تخطفه الطير أو أن الرياح تلقي به في مكان بعيد حيث لا يدري أحد كذلك.

ومن ظواهر التصوير القرآني تجسيم المعنويات المجردة وإبرازها أجسامًا أو محسوسات على العموم حتى إنه ليصل القرآن في هذا إلى مدى بعيد.

من ذلك خلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية والانفعالات النفسية، هذه الحياة التي قد ترتقي فتصبح حياة إنسانية تشمل هذه المواد

---

(١) أي ثقب الإبرة.

(٢) الحج: ٣١.

والظواهر والانفعالات، وتهب هذه الأشياء كلها عواطف آدمية تشارك بها الآدميين، وتأخذ منهم وتعطي وتجعلهم يحسون الحياة في كل شيء تقع عليه العين فيأنسون بهذا الوجود أو يخافونه.

فهذا هو الصبح يتنفس: ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾[1] فتتخيل هذه الحياة الهادئة اللطيفة التي تظهر مع طلوع الصبح وهو يتنفس فتتنفس معه الحياة ويدب النشاط في الأحياء على وجه الأرض والسماء، وهاتان هما الأرض والسماء عاقلتين يوجه الله إليهما الخطاب فتسرعان بالإجابة ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[2] فتتخيل الأرض والسماء تُدعيان وتجيبان الدعاء.

وهذه هي الأرض (هامدة) مرة و(خاشعة) مرة، ينزل عليها الماء فتهتز وتحيا، ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[3] وهكذا تصير الأرض الجامدة كائنًا حيًّا بلمسة واحدة في لفظة واحدة.

---

(١) التكوير: ١٨.

(٢) فصلت: ١١.

(٣) الحج: ٥.

وهذه جهنم، جهنم النَّهِمَة التي لا تشبع، جهنم التي تغتاظ ولا يفلت منها أحد، جهنم التي تدعو من كانوا يُدْعَون إلى الهدى فيستكبرون ويعاندون، وهم لدعوتها- على الرغم منهم- يجيبون.

يصفها الله بقوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[1]، ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[2]، ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[3].

ومن ألوان التصوير في القرآن الحركة المتخيلة التي تلقيها في النفس بعض التعبيرات مثل: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[4].

فـ(قدمنا) تخيل للحس حركة القدوم التي سبقت نثر العمل كالهباء، وهذا التخييل يختفي لو قيل: وجعلنا عملهم هباءً منثورًا، حيث كانت تنفرد حركة النثر وصورة الهباء دون الحركة التي تسبقها: حركة القدوم

---

(١) ق: ٣٠.

(٢) الفرقان: ١٢.

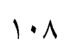
(٣) الملك: ٧-٨.

(٤) الفرقان: ٢٣.

ومـــن ذلـــك: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾[1]، في موضع: لا تطيعوا الشيطان؛ فإن كلمتي تتبعوا، وخطوات؛ تخيلان حركة خاصة هي حركة الشيطان يخطو والنـاس وراءه يتبعـون خطواتـه، وهـي صـورة حـين تُتخيل هكذا تبدو عجيبة التأثير في النفس حيث إنهـا تُنفِّـر الإنـسان مـن إطاعـة الشيطان العدو الذي أخرج آدم من الجنة.

كل ذلك وغيره يدل دلالة قاطعة على أن سيدنا محمدًا- وهو الأمي الـذي لا يقرأ ولا يكتب- لا يستطيع الإتيان بمثل هذا الكلام المعجز.

(١) البقرة: ١٦٨.



الفصل السادس

الإعجاز التشريعي

إذا كان الغربيون يتفاخرون بأنهم في القرن العشرين وضعوا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ويعتبرونه النموذج المثالي لهذه الحقوق فإنهم نسوا أو تناسوا أن القرآن الكريم قد قرر هذه الحقوق منذ أربعة عشر قرنًا بأسمى مبدأ للبشرية جمعاء، وجاء الإسلام بحقوق ليست واردة في الإعلان العالمي؛ يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[1]، والخطاب في هذه الآية موجه للناس جميعًا وأنهم خلقوا على اختلاف أجناسهم وألوانهم ودياناتهم من رجل واحد هو آدم وامرأة واحدة هي حواء، وأنهم متساوون في أصل الخلق، والقرآن بهذه الآية يركز على وحدة الجنس البشري.

وقد اشتمل القرآن على كثير من المبادئ السامية التي تدل على عظمته وأصالته، ومنها:

---

(١) الحجرات: ١٣.

١. مبدأ حرية العقيدة والرأي، والدليل قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾[2].

٢. **قواعد عادلة في المعاملات:** في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَـٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَـٰطِلِ﴾[7].

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) الكافرون: ١-٦.

(٣) المائدة: ١.

(٤) النحل: ٩١.

(٥) البقرة: ٢٧٥.

(٦) البقرة: ٢٨٢.

(٧) النساء: ٢٩.

٣. **قوانين الأحوال الشخصية**: وهي قواعد عادلة ومستقرة لتعلقها بأحوال الإنسان الشخصية في الأسرة؛ فوضع الشرع لها نظامًا كاملًا مفصَّلًا في مسائل الزواج والطلاق والحمل والعدة والرضاع والنفقة والميراث وحقوق الأبناء وذوي القربى، وتوسع في أحكامها الكلية وجعلها مرنة وقابلة لاجتهاد المجتهدين من الفقهاء بما يساير الزمان والمكان.

٤. **القانون الجنائي**: وهو يعد أعظم برهان يدل على عظمة القرآن في تشريعه لجرائم الحدود التي بيَّن نوعها وحدد عقوباتها التي تتمثل فيها العدالة والحكمة والرحمة بما فيه الكفاية للردع والزجر بصورة تكفل الأمن والسلام للعباد والبلاد.

دعائم الشريعة الإسلامية

لابد لكل تشريع من أسس ودعائم يقوم عليها وتساعد على بقائه، ولابد أن يتمشى هذا التشريع مع مصالح الأفراد والجماعات، والشريعة الإسلامية تتمتع بهذه الخصائص التي تجعل الناس منقادين لأحكامها عن ثقة وقناعة؛ فهي توافق الفطرة السليمة وتوجه الإنسان إلى ما فيه النفع والخير.

ومن أهم دعائم الشريعة الإسلامية ما يأتي:

١. أنها شريعة سمحة لأن تكاليفها كلها ميسرة لا مشقة فيها؛ فهي في حدود استطاعة كل إنسان، ويقول الله سبحانه وتعالى في وصفها: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[1]، كما يقول سبحانه: ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾[2].

٢. أنها جاءت شريعة عامة وشاملة لا نظر فيها إلى حالات فردية أو جزئية أو شخصية.

٣. أنها سنت للناس رخصًا عند الضرورة رفعًا للضرر ومنعًا للمشقة، فمثلًا فرضت الشريعة الصيام ولكنها رخصت الفطر للمسافر والمريض، وأباحت التيمم بالتراب عند فقد الماء عند الصلاة، وأباحت الصلاة قاعدًا لمن لا يقدر على القيام، وأباحت صلاة المسلم مضطجعًا في حالة عدم استطاعته القعود، وغير ذلك من الرخص.

٤. قلة تكاليفها: لأنها اقتصرت على الأركان الخمسة وما يتصل بها.

وأما أعمال البر والطاعة غير ما افترضه الله على الإنسان فكثيرة يأتي منها قدر ما يجتهد.

٥. التدريج في الأحكام: فقد عالجت العادات الذميمة المتأصلة في النفوس بالتدرج في استئصالها شيئًا فشيئًا من غير تشديد ولا تعقيد في النهي عنها

(١) الحج: ٧٨.

(٢) البقرة: ٢٨٦.

وتحريمها، فمثلًا في عادة شرب الخمر جاء الإسلام بالأحكام متدرجة في تحريمها بأسلوب حكيم لم يشعر الناس معه بحرج أو مشقة وكذلك تحريم الربا.

٦. مسايرة مصالح الناس: وذلك أن الله تعالى بحكمته البالغة قد يشرع الحكم في وقت معين ثم ينسخه بحكم آخر في وقت آخر أو لأمة أخرى بما يوافق مصلحة الإنسان والله تعالى في ذلك- ولله المثل الأعلى- كمثل الطبيب الذي يصف الدواء للمريض في مرحلة معينة ثم يصف له دواءً آخر في مرحلة أخرى من العلاج.

أهم المبادئ التي جاءت بها الشريعة الإسلامية

١. **مبدأ التوحيد**: فقد جمع الناس تحت عبادة إله واحد؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[1].

٢. **مبدأ الاتصال المباشر بالله دون وساطة**؛ فقال سبحانه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2]، وقوله جل شأنه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾[3] فلم يجعل رهبانًا أو أحبارًا بين الله وعباده.

٣. **مبدأ التخاطب مع العقل**: فالإسلام يُعلي من شأن العقل جدًّا، والتشريع الإسلامي جعل العقل مناط التكاليف كلها فلا صلاة ولا زكاة ولا صيام ولا

---

(١) آل عمران: ٦٤.

(٢) غافر: ٦٠.

(٣) البقرة: ١٨٦.

حج على مجنون لأنه غير مكلف، وقد خاطب الله تعالى أولي الأبصار وأصحاب العقول عندما أراد أن يلفت النظر إلى آثار قدرته وعظمة خلقه للكون؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]، وعند استخلاص العظات والعبر يقول: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[2]، ويقول: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3]

٤. مبدأ إحاطة العقيدة بالأخلاق الفاضلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[5].

٥. مبدأ المساواة والعدالة بين الناس جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) آل عمران: ١٩٠.

(٢) الحشر: ٢.

(٣) البقرة: ٤٤.

(٤) الفرقان: ٦٣.

(٥) فصلت: ٣٤.

عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [1]، وقول رسول الله ﷺ لابنته: «**اعملي يا فاطمة فإني لا أغني عنك من الله شيئًا** ».

٦. **مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، وهو قاعدة الإصلاح في جميع مناحي الحياة.

٧. **مبدأ الشورى** لقوله تعالى: ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ** ﴾ [2].

٨. **مبدأ التسامح** وهو يشمل جميع المعاملات بين الناس.

٩. **مبدأ الحرية في العقيدة والرأي**.

١٠. **مبدأ التكافل الاجتماعي**؛ فإن أدلة القرآن والسنة مليئة بالحديث عن الأخوة بين أفراد المجتمع المسلم قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ [3]، وقال تعالى: ﴿ **فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ** ﴾ [4]، وقال رسول الله ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**» [5]، ومن مظاهر التكافل أن الله جعل الزكاة حقًا للفقير في مال الغني، وجعل ذلك ركنًا من أركان الإسلام.

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) الحجرات: ١٠.

(٤) البقرة: ١٧٨.

(٥) متفق عليه.

وهذه المبادئ تدل على متانة بناء التشريع الإسلامي وقوة أركانه وصلاحيته في كل زمان ومكان بين جميع الأجناس، ومما يدل على ذلك أن الأمة الإسلامية كانت في أزهى عصور ازدهارها حينما كانت تخضع للشرع الإسلامي في جميع الشئون، وكانت في غاية الضعف عندما انصرفت عن الشريعة وخضعت للقوانين الوضعية ظنًّا منها أن الفقه الإسلامي لا يساير التطور في عالم الإنسان، وهو وهم باطل.

وقد جاء التشريع الإسلامي بحلول فعَّالة لكثير من الجرائم التي كانت منتشرة وشرع لها الحدود التي تكفل القضاء عليها، من ذلك:

جريمة قتل النفس

المقاصد الأساسية للشريعة الإسلامية هي: حفظ الدين والعقل والمال والنفس والنسل؛ فالشريعة الإسلامية تعلي من شأن الحفاظ على النفس وتعتبر الاعتداء على النفس بالقتل أخطر الجرائم، وبقدر اهتمام الإسلام بحياة المسلم فقد اشتد في العقوبة على من يعتدي عليها؛ قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾[1] فعقوبة القاتل في الآخرة العذاب الأليم والخلود المقيم في جهنم والغضب واللعنة والعذاب العظيم، وقال رسول الله ﷺ: «**لو أن أهل السماء**

---

(١) النساء: ٩٣.

وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النـار»[1]، وقـد شرع الله تعـالى القِصاص وإعدام القاتل انتقامًا منه وزجرًا لغيره وتطهيرًا للمجتمع من الجـرائم التـي يـضطرب فيهـا النظـام العـام وتـسود الفـوضى؛ فقـال تعـالى: ﴿ **وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾[2].

فمن عدالة الإسلام في تشريعه أن جعل عقوبة القاتل أن يُقْتَل لأن ذلك من الجزاء العادل الذي يستحقه، وحتى هؤلاء الذين يقتلون أنفسهم انتحارًا لهم عذاب شـديد يوم القيامة لأنهم قنطوا من رحمة الله ولا يقنط من رحمة الله إلا الكافرون.

ولا شك أن رحمة الله عظيمة بفرضه القِصاص الذي جعل فيـه حيـاة النـاس وأمنهم ومنع العدوان بينهم، فالقصاص في الحياة العظيمة والبقـاء للنـاس فـإن القاتل إذا علم أنه سَيُقْتل ارتدع وخاف فأحيى نفسه عن جهة وأحيـى مـن كـان يريد قتله من جهة أخرى، وإن من يتدبر قوله تعالى: " ولكم في القصاص حيـاة يا أولي الألباب " ليجد فيها كل الإعجاز البيـاني والتـشريعي مـن حيـث روعـة الأسلوب وروعة المعنى، وهما يؤكدان معجزة القرآن الكريم.

---

(١) رواه الترمذي بسند حسن.

(٢) البقرة: ١٧٩.

جريمة الحرابة

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وقال ﷺ في خطبته في حجة الوداع: «**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**».

والحرابة جريمة يعاقب عليها الشرع في إحدى الحالتين الآتيتين:

(أ) الاستيلاء على مال الغير بالغلبة وفي خفاء عن المجتمع.

(ب) قطع الطريق على الناس ومنع المرور فيه بقصد السلب والنهب والإرهاب.

والمحاربون هم الذين يجتمعون بقوة وشركة ويحمي بعضهم بعضًا ويقصدون إيذاء الناس في أرواحهم وأموالهم، ويخيفونهم ويثيرون الفزع والقلق في نفوسهم ليخضعوا لرغباتهم الظالمة.

وقد نص القرآن على عقوبتها بقطع اليد اليمنى وترك بقية الأطراف سليمة لكي يعمل بها لكسب رزقه من وجه حلال إذا ارتدع، وتجمع هذه العقوبة بين

---

(١) المائدة: ٣٣.

القسوة والرحمة في آن واحد، وهذا ضرب من الإعجاز في العقوبة والـردع معًـا، وقد أحـل الـشرع بعـد ذلـك قتلـه إذا تمـادى في الجريمـة ولم يرتـدع، ويعاقـب المحارب بالقتل إذا قَتَل سواء استولى على المال أم لم يستولِ عليه.

وقد نصت الآية على أنواع أخرى من العقوبات التـي توقـع عـلى المحـاربين الآثمين غير قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف لشل نـصف الجـسم المجـرم عـن الحركة، وهي قتلهم وصلبهم تشهيرًا بسوء عملهم وإذلالًا لهم.

وهذه الأحكام تدل دلالة واضحة على أن الشريعة الإسـلامية تنظـر إلى آثـار الجريمة التي فيها اعتداء شنيع عـلى الأبريـاء مـن الرجـال والنـساء والأطفـال، وإزهاق أرواحهم وسلب أمـوالهم، وشـددت العقوبـة بـما يناسـب مـا أحدثتـه الحرابة من عدوان وترويع للآمنين ثم إن لهم في الدار الآخـرة عـذابًا عظـيمًا هـو عذاب النار.

وقد أثبت التاريخ أن المجتمع الإسلامي عندما طبـق أحكـام الحـدود عـاش آمنًا مطمئنًا على أمواله وأعراضه ونظامه، بل إن المجرم نفسه كان يسعى لإقامـة الحد عليه رغبة منه في تطهير نفسه بالتكفير عـن ذنبـه، وعنـدما تهـاون المجتمـع الإسلامي في تطبيق الحدود وانساق مع تشريعات الغرب الوضعية تـسرب إليـه الفساد وشاع فيه الإجرام، وكاد يلحق بدول الغرب في التفنن في أساليب الجريمة.

وكان من أبشع جرائم الحرابة في العصر الحديث ما كان يحدث في الحجاز- قبل الحكم السعودي- لحجاج بيت الله من الاعتداء عليهم واغتصاب أموالهم، حتى أن الفقهاء المتأخرين أوجبوا على كل من يخرج للحج أن يكتب وصيته قبل أن يغادر بلده، وكانت الحكومة في مصر وسوريا ترسل مع بعثاتها للحج الجنود المسلحين لحمايتها، فلما حكم الجزيرة العربية الملك عبد العزيز آل سعود ونفذ الأحكام الشرعية كما أمر الله ورسوله هاب اللصوص وقطاع الطرق عقوبتها الشرعية، وذكروا عن هذا الملك الراحل أن عدد الأيدي التي قُطِعت في مملكته لا تزيد على ستة عشر يدًا خلال أربعة وعشرين عامًا هي مدة حكمه.

ومن الناس من يزعم أن هذه العقوبة قاسية وغير إنسانية، وأولئك ينظرون إلى العقوبة ولا ينظرون إلى الجناية، ويرحمون الجاني ولا يرحمون المجني عليه، والمجني عليه هنا هو الجماعة التي تُنْهَب أموالها وتُسْفَك دماؤها، وقاعدة الشرع في العقوبات أنه يجعل أشد العقوبات في مقابلة أعلى الجرائم، والنبي الكريم يقول: «**من لا يَرْحَم لا يُرْحَم**»[1]، ولو طبقت عقوبة الحِرابة في الدول الأوربية حيث العصابات الدولية كالمافيا لأَمِن الناس على أنفسهم ولما أنفقت الحكومات الأموال الطائلة في مطاردتهم.

أليس هذا التشريع الإلهي المعجز يدل على عظمة تشريع الإسلام الذي جاء به القرآن.

---

(١) رواه البخاري.

جريمة السرقة:

قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

وقال ﷺ معبرًا عن عدالة الإسلام: « **وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها**».

السرقة نزعة شريرة تحمل صاحبها على ارتكاب جرائم عديدة فظيعة في سبيل الاستيلاء على مال غيره، خُفْية أوكرهًا بدافع من خبث الطبع وفساد المنشأ وسوء التربية، وهي عوامل تجره إلى ارتكاب جريمة القتل أحيانًا إذا اعترضه معترض، وقد يصل به الإجرام إلى قتل الأب أو الأم أو الإخوة من أجل سلب أموالهم.

ومن يسرقون الأموال يصرفونها في المنكرات والمهلكات وشراء ذمم الناس للتستر عليهم وينشئون دور اللهو والميسر وغيرها مما يدمر أخلاق المجتمعات.

ونظرًا لخطورة جريمة السرقة وما يترتب عليها من الجرائم والمصائب شرع الإسلام عقوبات قاسية ورادعة تكفل القضاء عليها والتقليل من أضرارها، مستهدفة بهذه العقوبات مصلحة الجماعة لأنها تريد المحافظة على الضروريات

(١) المائدة: ٣٨.

اللازمة للناس في حياتهم التي قوامها: حماية الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وقد انتهج الإسلام لتحقيق هذه الغاية وسيلتين رئيسيتين هما:

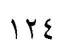
أولًا: وسيلة تهذيب نفس المسلم ذاته عن طريق المجتمع الإسلامي القائم على دعائم الاستقامة والمحبة ومكارم الأخلاق والتعاون على البر والتقوى.

ثانيًا: وسيلة ما شرعه القانون الجنائي الإسلامي من إقامة الحدود لحماية الضروريات اللازمة لأمن الإنسان؛ فجعل حد الردة لحماية الدين وحد القِصاص للحفاظ على الأنفس، وحد شرب الخمر لحماية العقل، وحد الزنا والقذف لحماية العِرْض والنسل... إلخ.

وواجهت الشريعة الإسلامية جريمة السرقة بعقوبة قاسية هي قطع اليد؛ لتكفل بذلك استئصال الجريمة من جذورها ولتكون بقسوتها رادعة لكل من تسول له نفسه العدوان على مال الغير خُفْية أوغصبًا، وتهدف العقوبة إلى قطع اليد لأنها هي الأداة التي استعملها السارق وساعدته على ارتكاب جريمته، وذلك لمنع استعمالها مرة أخرى في السرقة، وحكمة التشريع في قطع اليد أنها تعتبر أن الجرائم الخطيرة لا يفلح في ردها إلا عقوبات صارمة ومؤلمة ليس فيها لين أو رأفة؛ ليكون الجزاء من جنس العمل، ولتكون العقوبة ملازمة للجاني وظاهرة للناس ومحذِّرة لهم.

وقد اتفق الفقهاء على قطع يد السارق اليمنى في السرقة الأولى فإذا عاد للسرقة تقطع رجله اليسرى في رأي بعض الفقهاء، وذلك لشل حركة السارق فإذا عاد بعد ذلك فلا قطع وإنما يحبس إلى مدة غير محدودة حتى يموت أو يتوب نهائيًّا.

وقد يحلو لبعض الجاهلين بحكمة التشريع الإسلامي أن يصفوا عقوبة قطع اليد بالقسوة وعدم الرحمة، ويتباكون على الأيدي المقطوعة ناسين أو متناسين ما أحدثته هذه الأيدي الآثمة من أذى وقتل وتخريب وفساد في الأرض؛ فهم يشفقون على الجاني ولا يشفقون على المجني عليهم، ولو سُرِق من أحدهم ما يعتز به أو ما كَدَّ في تحصيله وجمعه لما تفوَّه بهذا الكلام، وحقيقة الواقع أن الدول الإسلامية التي طبقت أحكام الشريعة الإسلامية قلَّت فيها جرائم السرقة، ودليل ذلك ما يحدث في المملكة العربية السعودية التي طبقت شرع الله؛ فإنه لم يقطع فيها يد السارق إلا في القليل جدًّا من الحالات، ونتمنى لو احتذت الدول الإسلامية الأخرى حذو المملكة العربية السعودي؛ ليتهيأ لأهلها الأمن والطمأنينة على أموالهم وأنفسهم، وإنه من الإنصاف أن ننظر إلى قطع اليد على أنه لا يقصد الشرع به الرغبة في قطع الأيدي، بل هو الرغبة في سلامة هذه الأيدي من القطع بمثل هذه العقوبة المخيفة التي تمنع السارق من ارتكاب جرائمه، فهل بعد ذلك رحمة في قسوة الأحكام التي تحفظ الأمن وتمنع الإجرام؟!



الفصل السابع

إعجاز القرآن في وفائه بحاجات البشر

القرآن الكريم جاء بهدايات تامة كاملة تفي بحاجات البشر في كل زمان ومكان وفاءً لا نجد له مثيلًا في أي تشريع ولا في أي دين آخر، ويتضح ذلك إذا استعرضنا المقاصد النبيلة الشريفة التي استهدفها القرآن في هدايته، ونعرض من تفاصيلها ما يأتي:

أولًا: إصلاح العقائد عن طريق إرشاد الخلق إلى حقائق مبدأ الخلق ومصيره في النهاية وما بينهما تحت عنوان الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله واليوم الآخر.

فعرف الإنسان أن له إلهًا واحدًا يراقبه وأنه لا معبود سواه وأن ما دونه هو الباطل، وعرف أن هناك ثوابًا وعقابًا وجنة ونارًا؛ فلم تعد الحياة عبثًا؛ فحرره من ذلك الشرك وأخرجه من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان فاطمأنت نفسه.

ثانيًا: إصلاح العباد عن طريق إرشاد الخلق إلى ما يطهر النفوس ويُغذي الأرواح ويقوِّم الإرادة؛ فقال تعالى عن الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾[1].

---

(١) العنكبوت: ٤٥.

وقال عن الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[1] وقال عن الصوم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

فإن العبادات تطهر النفوس وتغذي الروح؛ فإن ذكر الله يطمئن القلوب؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[3] فإذا اطمأن القلب سمت الروح وارتقت.

ثالثًا: إصلاح الأخلاق عن طريق إرشاد الخلق إلى الفضائل وتنفيرهم من الرذائل في قصد واعتدال بلا مبالغة أو تقصير.

والقرآن مليء بالآيات الكثيرة التي تحض على الفضائل وتنهى عن الرذائل؛ فمن ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ﴾[4].

---

(١) التوبة: ١٠٣.

(٢) البقرة: ١٨٣.

(٣) الرعد: ٢٨.

(٤) النحل: ٩٠.

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[1] ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[3].

فإن القرآن نزل موافقًا للفطرة السليمة والضمائر النقية ليؤسس أمة الأخلاق.

والأخلاق التي جاء بها القرآن تزيد على ما جاء في التوراة والإنجيل.

رابعًا: إصلاح الاجتماع عن طريق إرشاد الخلق إلى توحيد صفوفهم ومحو العصبيات وإزالة الفوارق الاجتماعية التي تباعد بينهم، وذلك بإشعارهم أنهم جنس واحد من نفس وأحدة أبوهم آدم وأمهم حواء، وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى وأنهم متساوون أمام الله ودينه وأحكامه وتشريعاته متساوون في الحقوق والواجبات من غير استثناء ولا امتياز، وأن أمة المسلمين أمة واحدة يؤلف بينها المبدأ ولا تفرقها حدود إقليمية أو فواصل سياسية أو جغرافية؛ قال

---

(١) الأعراف: ٢٨.

(٢) الأعراف: ٢٩.

(٣) الأعراف: ٣٣.

تعـالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾[1]، وقـال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾[2].

وأخبر الله تعالى في كتابه الناس أنه خلقهـم مـن نفـس واحـدة وجعـل منهـا زوجها وهما آدم وحـواء، وأن جميـع النـاس في الـشرف بالنـسبة الطينيـة إلى آدم وحواء سواء وإنما يتفاضـلون بـالأمور الدينيـة وهـي طاعـة الله تعـالى ومتابعـة رســوله ﷺ؛ يقــول تعــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[3]، وفي تأكيد هذا المعنى يقول الرسول الكريم عن أبي ذر قال: إن النبي ﷺ قال له: «**انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله**»[4]

خامسًا: إصلاح السياسة أو الحكم الدولي عـن طريـق تقريـر العـدل المطلـق والمساواة بين الناس ومراعاة الفضائل في الأحكام والمعاملات من الحق والعدل والوفاء بالعهود والرحمة والمحبة واجتناب الرذائل مـن الظلـم والغـدر ونقـض العهود والكذب والخيانة والغش وأكل أموال الناس بالباطـل كالرشـوة والربـا

---

(١) المؤمنون: ٥٢.

(٢) الحجرات: ١٠.

(٣) الحجرات: ١٣.

(٤) رواه الإمام أحمد.

والسرقة؛ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾[1]، وكلمة (الأمانات) تشمل كل أنواع الأمانة ومنها أمانة الحكم فيجب على الحاكم أن يؤدي هذه الأمانة على أكمل وجه كما أراده الله.

وعن تأكيد الوفاء بالعهد وخاصة إذا كان العقد بين الطرفين ميثاقًا أو معاهدة بين دولتين يقول تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ۝٩١ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾[2].

فالميثاق الذي يعقده المسلم لا يرتبط به أمام الناس فقط، بل إنه ينعقد في الوقت نفسه بينه وبين الله تعالى؛ إذ يجعل المسلم ربه شهيدًا وكفيلًا على عقوده والتزاماته أمرًا متصلًا بعقد الإيمان بحيث لا يبقى لقوة في الأرض أن تحلله منه سواء في ذلك دوافع المنفعة أو طلب النفوذ أو التوسع الاقتصادي أو التوازن السياسي أو غير ذلك، وقد طبق المسلمون الأوائل هذه التعاليم القرآنية.

فالإسلام قد أسبغ على العهود والمعاهدات الدولية (قدسية) وصلها بالمبدأ الاعتقادي وأوجب الوفاء بها وحذر المسلمين من نقضها غدرًا وخيانة ﴿فَمَن

---

(١) النساء: ٥٨.

(٢) النحل: ٩١-٩٢.

﴿نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[1] وذلك لكونها عهودًا مبرمة بين المسلمين والله خالقهم ابتداءً.

والمواطنون غير المسلمين (اليهود والنصارى) الذين يعيشون في الدولة الإسلامية بحكم (عقد الذمة) لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «**ألا من ظلم معاهدًا أو كلَّفه فوق طاقته أو انتقصه أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه[2] يوم القيامة**»[3].

فالمساواة تامة في الحقوق العامة وفي القوانين المدنية والجنائية فيما عدا الأحوال الشخصية المتعلقة بشرائعهم الدينية فهم أحرار في تطبيقها على أنفسهم وفي محاكمهم الخاصة إلا إذا رضوا الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية في هذا الشأن، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾[4]

---

(١) الفتح: ١٠.

(٢) حجيجه: خصمه.

(٣) رواه أبو داود.

(٤) المائدة: ٤٢.

ويقول تعالى أيضًا: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

سادسًا: الإصلاح المالي عن طريق الدعوة إلى الاقتصاد وحماية المال من التلف والضياع ووجوب إنفاقه في وجوه البر وأداء الحقوق الخاصة والعامة والسعي المشروع على الرزق.

سابعًا: الإصلاح النسائي عن طريق حماية المرأة واحترامها وإعطائها جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية.

ثامنًا: الإصلاح الأُسري عن طريق تشريع ما فيه مصلحة الأسرة وسعادتها من أحكام الخطبة والزواج وتربية الأولاد وأحكام الطلاق والخلع والميراث وغير ذلك.

تاسعًا: الإصلاح الحربي عن طريق تهذيب الحرب ووضعها على قواعد سليمة لخير الإنسانية في مبدئها وغايتها، ووجوب التزام الرحمة فيها والوفاء بمعاهداتها وإيثار السلم عليها والاكتفاء بالجزية عند النصر.

قد بَيَّن القرآن أن الحرب المشروعة= كلمة الدفاع، وتحتها نوعان:

---

(١) البقرة: ١٨٨.

١ـ الدفاع عن النفس، وفيه يقول تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾[1].

٢ـ الإغاثة الواجبة لشعب مسلم أو حليف عاجز عن الدفاع عن نفسه، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[2].

ويستنكر القرآن تعذيب الأعداء ومعاملتهم بالقسوة والخشونة، ويصل في استنكار هذه الفعلة إلى حد أن يعد تعذيب العدو أشد جُرمًا من القتل؛ يقول تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ﴾[3] ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾[4].

ويحض القرآن المؤمنين على أن يُعدوا للطاغين المفسدين كل ما استطاعوا من قوة، والمسألة في نظر القرآن ليست مسألة إعداد للهجوم على الأعداء بل

(١) الحج ٣٩-٤٠.

(٢) النساء: ٧٥.

(٣) البقرة: ١٩١.

(٤) البقرة ٢١٧.

للتحصن من شرهم وإنذارهم بالقوة الباطشة التي تنتظرهم إذا ما فكّروا في الاعتداء على المؤمنين، وهذا أفضل وأنفع مما ينادي به الغرب من منع التسلح أو تقييده، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[1] والقرآن يحض الرسول على قبول مبدأ الصلح متى وجد من العدو ميلًا إليه؛ قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾[2].

ومن ألقى سلاحه وتقدم إلينا في صراحة بعبارات السلام أو الاستسلام يحرم القرآن علينا إيذاءه حتى لو كان ذلك بحجة الشك في صدق إيمانه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[3].

عاشرًا: محاربة الاسترقاق في المستقبل وتحرير الرقيق[4] الموجود بطرق مختلفة منها الترغيب في تحرير الرقاب وجعله كفارة للقتل وللظِّهار ولإفساد الصيام بطريقة فاحشة ولليمين الكاذبة.

---

(١) الأنفال: ٦٠.

(٢) الأنفال: ٦١.

(٣) النساء: ٩٤.

(٤) العبيد.

حادي عشر: تحرير العقول والأفكار، ومنع الإكراه والاضطهاد والسيطرة الدينية القائمة على الاستبداد والتكبر؛ قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[1].

وقال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ﴾[2]

والدليل على أن كل ذلك من إعجاز القرآن أن غير المسلمين ما زالوا حائرين يبحثون عما يصلح شئونهم في جوانب كثيرة من نواحي حياتهم حتى اضطروا بعد طول التجارب أن يرجعوا إلى هداية القرآن من حيث يشعرون أو لا يشعرون، وهذا المعنى مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ ومن الشواهد على ذلك:

أن الولايات المتحدة حرمت الخمر ولكنها فشلت لأنها لم توفق إلى الطريقة الحكيمة التي اتبعها الإسلام في تحريم الخمر بعد أن تربت النفوس على الإيمان بالله.

أن بعض الدول غير الإسلامية ومنها أمريكا أباحت الطلاق وإن كانت قد أسرفت فيه.

---

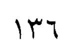
(١) الغاشية: ٢١-٢٢.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

أن مـصلحي أوروبـا يرفعـون أصـواتهم بـضرورة الرجـوع إلى مبـدأ تعـدد الزوجات- الذي أتى به القرآن- حتى أن بعض النساء هناك طالبن بهذا.

أن زعيم فرنسا نادى بعد هزيمتها في الحرب قائلًا: إن سـبب انهيـار دولـتهم هو انغماسهم في الشهوات الجنسية وإسرافهم في المفاسد.

وهكذا نجد أن كل ما جاء به القرآن هو خير ما يصلح البشر في جميع نواحي الحياة.



الفصل الثامن

الإعجاز الغيبي

وعيد الله للوليد بن المغيرة بنار جهنم

يقول تعالى في سورة المدثر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ۝٣١﴾[1].

---

(١) المدثر: ١١-٣١.

أجمعت التفاسير على أن المقصود بهذه الآيات هو الوليد بن المغيرة المخزومي.

في هذه الآيات يتوعد الله الوليد بن المغيرة بالنار، وأنه سيموت على الكفر، ولو فرض أنه نطق بالشهادتين لنسف القرآن ولصار معنى ذلك أنه قول البشر وليس قول الله الذي يعلم كل ما كان وكل ما يكون وكل ما لم يكن.

وهذا الكلام ينطبق أيضًا على سورة المسد حين أخبر الله تعالى أن عم النبي ﷺ أبا لهب وامرأته من أهل النار.

فقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[1] .

فقد مات أبو لهب وامرأته على الكفر، ولم يحدث أن أعلن أحد منهما إسلامه إذ لو حدث هذا لتحدث الناس- وبخاصة الكفار- أن القرآن كاذب ولانتهى أمر الدين وما ظل باقيًا إلى اليوم.

والإعجاز الثاني في الآيات التي تتحدث عن الوليد بن المغيرة هو في الوصف الرائع لحالة الوليد وهو يفكر فيما سيرد به على المشركين في تحليله لآيات القرآن فلم يجد له وصفًا إلا السحر.

---

(١) المسد: ١-٥.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ فيما يقول في القرآن الذي سمعه من النبي ﷺ ﴿وَقَدَّرَ﴾ في نفسه ذلك ﴿فَقُتِلَ﴾ لُعِن وعُذِّب ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ على أي حال كان تقديره ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ في وجوه قومه أوفيما يذم به في القرآن ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قبض وجهه علامة الضيق بما يقول ﴿وَبَسَرَ﴾ زاد في القبض ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ وأعرض عن الإيمان ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ تكبر عن اتباع النبي ﷺ ﴿فَقَالَ﴾ فيما جاء به ﴿إِنْ﴾ ما ﴿هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ يُنقل عن السحرة ﴿إِنْ﴾ ما ﴿هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ كما قالوا: إنما يعلِّمه بشر.

فقد وصف القرآن بأنه قول البشر وبأنه سحر.

وهو نفسه الذي وصفه في موقف آخر، وقد جاء يساوم النبي ﷺ مقلبًا له الأمور على كل وجوه الاسترضاء التي يقبلها الناس، وهنا يقول له النبي ﷺ: «**أفرغت يا أبا الوليد**»؛ فيقول له: نعم، فيقول له: «**فاسمع مني**». ثم تلا عليه سورة فصلت حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1].

فوضع يده على فم النبي ﷺ وناشده الله والرحم ألا يكمل.

(١) فصلت: ١٣.

وعاد لقومه بوجه غير الذي ذهب به، ولما سُئل قال: «**سمعت كلامًا ليس من كلام الجن ولا من كلام الإنس، والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يُعلى عليه**».

وهذا مما يعطي أقوى الدلائل على أن القرآن ليس كلام بشر وإنما هو كلام خالق البشر سبحانه وتعالى.

الحرب بين الفرس والروم

حدثت معركة بين الروم، والفرس فانتصر الفرس على الروم وكان الفرس يعبدون النار والروم أهل كتاب ففرح مشركو العرب- لأنهم أهل أوثان- بانتصار أهل الأوثان على أهل الكتاب من النصارى وحزن المسلمون.. فأنزل الله قرآنًا يواسي به المؤمنين ويرد فرحة الكافرين؛ قال تعالى: ﴿ **الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِيٓ ۝ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي ۝ بِضْعِ سِنِينَ** ﴾[1] وبضع سنين أي أقل من عشر سنوات.

---

(١) الروم: ١-٤.

فلما جاء هذا الخبر.. قال الله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

.. تحدٍّ! فالروم التي انهزمت يخبر الله سبحانه وتعالى أنها ستنتصر في أقل من عشر سنين! بل وسيأتي النصر ويفرح المؤمنون بعده.. وها هو الله سبحانه وتعالى يتحدى الكفار بهذه الآيات..فقد جاء رجل منهم إلى أبي بكر وقال: انظر ما يقول محمد! قال له أبو بكر: ما يقول ؟قال: يقول إن الروم تهزم الفرس!

قال له: صدق. وراهن بعض المشركين أبا بكر على تحقق هذه النبوءة ثم كسب أبو بكر في النهاية.. فما مرت سبع سنوات حتى تحقق وعد الله-جل وعلا- وانتصر الروم على الفرس وفرح المسلمون وكان ذلك في عام الحديبية.. وقد كانت معجزة للأوَّلين في هذا الأمر الغيبي الذي رأوه بعد سبع سنين من إخبار القرآن به.. فقال بعض الكفار الذين أسلموا:محمد عاقل وما هو مجنون، لقد جعل دينه كله ومستقبله كله والإسلام كله مرهون بانتصار دولة مهزومة؛ إنه حدد زمنًا قريبًا يكون في حياته فلو أنه مرت عشر سنوات ولم تنتصر الروم راح الإسلام وراح القرآن وراح محمد!! وقد رأى الكفار النبي ﷺ يحدد هذا

---

(١) الروم: ٤-٦.

التحديد ويجزم هذا الجزم، ولا تمر سبع سنوات إلا وقد تحقق، لا يمكن أن يكون هذا من عند بشر! هذا صنع الذي يحكم البشر فأسلم الكثير منهم!

والتاريخ يخبرنا بأن منطقة بيت المقدس- حيث دارت المعركة- هي أخفض منطقة في العالم ﴿ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ لأن لفظ أدنى لفظ مشتق يأتي بمعنى أقرب:

يُقال: أدنى إلي من الأخ.. أدنى بمعنى أقرب.

فأدنى تأتي بمعنيين بمعنى الأقرب ومعنى الأخفض.

والمفسرون السابقون أخذوا المعنى الأول من أدنى فقالوا: أقرب منطقة إلى بلاد العرب منطقة الأغوار في البحر الميت فهي أدنى الأرض بالنسبة لجزيرة العرب، فقالوا: أقرب؛ لكن الآية تشتمل على المعنى الثاني بمعنى الأخفض. فمنطقة بيت المقدس والمنطقة حولها أخفض منطقة في الأرض..؛ فهذا القرآن الكريم نزل بعلم الذي أحاط بكل شيء علمًا سبحانه وتعالى.

الفصل التاسع

الإعجاز التاريخي

قوم سبأ وسَيْل العَرِم

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾[1].

يعتبر مجتمع سبأ واحدًا من أكبر أربع حضارات عاشت في جنوبي الجزيرة العربية، ويُعتقد أن هؤلاء القوم قد أسسوا مجتمعهم ما بين ١٠٠٠-٧٥٠ قبل الميلاد، وانهارت حضارتهم حوالي ٥٥٠ بعد الميلاد بسبب الهجمات التي دامت قرنين والتي كانوا يتعرضون لها من جانب الفرس والعرب.

بقي تاريخ نشوء حضارة سبأ موضع خلاف حتى الآن؛ فالسبئيون لم يشرعوا بكتابة تقاريرهم الحكومية حتى سنة ٦٠٠ قبل الميلاد؛ لذلك لا يوجد أي سجلات سابقة لهذا التاريخ.

---

(١) سبأ: ١٥-١٦.

ويعرف السبئيون من خلال التاريخ كقوم متحضرين، ويعتبر سد مأرب الذي كان أحد أهم معالم هذه الحضارة دليلًا واضحًا على المستوى الفني المتقدم الذي وصل إليه هؤلاء القوم؛ إلا أن هذا لا يعني أنهم كانوا ضعفاء عسكريًّا؛ فقد كان الجيش السبئي من أهم العوامل التي ضمنت استمرار هذه الحضارة صامدة لفترة طويلة.

كان الجيش السبئي من أقوى جيوش ذلك الزمان، وقد ضمن لحكامه امتدادًا توسعيًّا جيدًا، فقد اجتاحت سبأ منطقة القتبيين، وتمكنت من السيطرة على عدة مناطق في القارة الإفريقية، وفي عام ٢٤ قبل الميلاد وأثناء إحدى الحملات على المغرب هزم الجيش السبئي جيش ماركوس إيليوس غالوس الروماني الذي كان يحكم مصر كجزء من الإمبراطورية الرومانية التي كانت أعظم قوة في ذلك الزمن دون منازع.

ويمكن تصوير سبأ على أنها كانت بلادًا معتدلة سياسيًّا إلا أنها ما كانت لتتأخر في استخدام القوة عند الضرورة.. لقد كانت سبأ بجيشها وحضارتها المتقدمة من القوى العظيمة في ذلك الزمان.

لقد ورد في القرآن ذكر جيش سبأ القوي، وتظهر ثقة هذا الجيش بنفسه من خلال كلام قواد الجيش السبئي مع ملكتهم كما ورد في سورة النمل: ﴿ **قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ** ﴾[1].

(١) النمل: ٣٣.

كانت مأرب هي عاصمة سبأ، وكانت غنية جدًّا، والفضل يعود إلى موقعها الجغرافي، كانت العاصمة قريبة جدًّا من نهر الدهنا الذي كانت نقطة التقائه مع جبل بلق مناسبة جدًّا لبناء سد، استغل السبئيون هذه الميزة وبنوا سدًّا في تلك المنطقة حيث نشأت حضارتهم، وبدءوا يمارسون الري والزراعة، وهكذا وصلوا إلى مستوى عالٍ جدًّا من الازدهار.

لقد كانت مأرب العاصمة من أكثر المناطق ازدهارًا في ذلك الزمن.

بلغ ارتفاع سد مأرب ١٦ مترًا وعرضه ٦٠ مترًا وطوله ٦٢٠ مترًا، وهذا يعني حسابيًّا أنه يمكن أن يروي ٩٦٠٠ هكتارًا من الأراضي، منها ٥٣٠٠ في السهل الجنوبي، والباقي للسهل الشمالي، كان يشار إلى هذين السهلين في النقوش السبئية "مأرب والسهلان" ويشير التعبير الدقيق في القرآن: ﴿ **جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ** ﴾ إلى وجود حدائق وبساتين في هذين الواديين أو السهلين، لقد أصبحت المنطقة أكثر مناطق اليمن غنًى وإنتاجًا بفضل السد ومياهه.

لقد تم إصلاح هذا السد خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد؛ إلا أن هذه الإصلاحات لم تمنع السد من الانهيار عام ٥٤٢ للميلاد؛ انهار السد بسبب سَيْل العَرِم الذي ذكره القرآن الكريم، والذي سَبَّبَ أضرارًا بالغة، لقد هلكت كل البساتين والحدائق ـ التي بقي السبئيون يرعونها لعدة قرون ـ كلها، وبعد

انهيار السد عانى السبئيون من فترة ركود طويلة لم تقم لهم قائمة بعدها... وهذه كانت نهاية القوم التي بدأت مع انهيار السد.

سَيْل العَرِم الذي اجتاح سبأ

إذا ما تأملنا الآيات القرآنية على ضوء المعلومات التاريخية التي ذكرناها، لوجدنا توافقًا كبيرًا.

تثبت المكتشفات الجيولوجية والأثرية ما جاء في القرآن، فكما ذكر القرآن لقد استحق هؤلاء القوم ـ الذين لم يستمعوا لنصح رسولهم وكذبوا بالحق لما جاءهم ولم يؤمنوا به ـ العقاب بِسيلٍ عَرِمٍ، يصف القرآن الكريم هذا السيل في سورة سبأ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾[1].

لقد كان السبئيون كما تدل الآية الكريمة يعيشون في منطقة مشهورة بجمالها؛ جِنَان وكروم، وكانت تقع على طرق التجارة، لقد كانت على مستوى متقدم جدًّا بالنسبة لغيرها من مدن ذلك الزمان.

---

(١) سبأ: ١٥-١٧.

كانت ظروف العيش في بلدة كهذه ممتازة، ولم يكن للقوم من جهد يبذلونه سوى ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾[1] كما تقول الآية، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك، بل نسبوا ما يملكونه لأنفسهم؛ لقد ظنوا أنهم أصحاب هذه البلدة، وأنهم هم الذين أوجدوا مافيها من الرخاء والازدهار، اختاروا الغرور والتكبر على الشكر والتواضع لله، وكما تقول الآية: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

لأنهم نسبوا كل ما أنعم الله به عليهم لأنفسهم، وأصرُّوا على أنه من صنعهم، خسروا كل شيء... لقد أهلك سيلُ العَرِم كل ما صنعت أيديهم.

ويقول تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾[2]. أي: إن البلدة بكاملها قد غرقت بعد انهيار السد بسبب السيل، لقد تحطمت جميع أقنية الري التي حفرها السبئيون، وكذلك الحائط الذي أنشئوه ببنائهم حواجز بين الجبال، ولم يعد لنظام الري أي وجود، وهكذا تحولت الجِنَان إلى أدغال، ولم يبقَ من الثمار شيء سوى ثمار تشبه الكرز وأشجار قصيرة كثيرة الجذور.

لقد أقر الكاتب وعالم الآثار المسيحي ورنر كيلر صاحب كتاب "الكتاب المقدس كان صحيحًا" أن سيل العرم قد حدث كما ورد وصفه في القرآن

---

(١) سبأ: ١٥.

(٢) سبأ: ١٦.

الكريم، وأنه وقع في تلك المنطقة، وأن هلاك المنطقة بكاملها بسبب انهياره إنما يبرهن على أن المثال الذي ورد في القرآن الكريم عن قوم الجنتين قد وقع فعلًا.

بعد وقوع كارثة السد بدأت أراضي المنطقة بالتصحر، وفقد قوم سبأ أهم مصادر الدخل لديهم مع اختفاء أراضيهم الزراعية، وهكذا كانت عاقبة القوم الذين أعرضوا عن الله وامتنعوا من شكره، وتفرق القوم بعد هذه الكارثة، وبدأ السبئيون يهجرون أراضيهم مهاجرين إلى شمالي الجزيرة؛ مكة وسوريا.

ويأتي الحيز الزماني الذي شغلته هذه الكارثة بعد زمن العهد القديم والعهد الجديد(أي التوراة والإنجيل)؛ لذلك لم يرد ذكره إلا في القرآن الكريم.

الفصل العاشر

الإعجاز النفسي

يرى البعض أن أسرار إعجاز القرآن الكريم إنما تكمن في ذاته وفي أثـره عـلى الأسماع وتأثيره في القلوب ولعل الإمـام الخطَّـابي كـان أول مـن أشـار إلى هـذا الوجه من وجوه الإعجاز وقد وافقه بعض العلماء من بعده؛ فقد قـال الجرجـاني «**إن العلماء قد وقفوا عند بيان الإعجاز في النظم والبلاغة ولم ينفـذوا إلى مـا وراء ذلك، وهو- أي جمال الكلام- يرجع إلى مبلغ تأثيره في النفوس**».

فالمتأثرون بهذا الوجه يـرون أن أسرار الإعجـاز تكـاد تـسطع أنوارهـا عـلى القلب فتتفتح فيه أبواب الإيمان؛ فحلاوة كلامه عز وجل تأخذ بمجامع القلوب وتستولي على وجود الإنسان كله.

وهذا الوجه النفسي التأثيري من وجوه الإعجاز لا يقع مستقلًّا بذاته بل لابد وأن يكون متصلًا بغيره من وجوه الإعجاز الأخرى، ومن مفهوم أصحاب هذا الوجه النفسي نرى أنه لا خلاف- في الواقع- بينهم وبين غيرهم مـن أصـحاب الوجوه الأخرى للإعجاز؛ فإن تذوق الإعجاز لا يمنع مـن بيـان الوجـوه التـي فجرت هذا التذوق بل إن الوجوه البيانية كلها تذوقية تحـرك المـشاعر وتـؤثر في الأسماع وترقق القلوب.

إن هذا الوجه النفسي كان وسيظل شمسًا مشرقة في حياة كل من اتصل بالقرآن وعاش معه بقلب متدبر وروح صافية.

ففي القرآن طاقة روحية هائلة ذات تأثير بالغ في نفس الإنسان فهو يهز الوجدان ويرقق المشاعر ويوقظ الإدراك والتفكير فإذا الإنسان نتيجة لتأثير القرآن يصبح إنسانًا جديدًا.

وهذه الخصيصة القرآنية هي التي جعلت العرب يخشون سماعه لضعفهم وقوته؛ فإن أسلوبه المعجز ونظمه الساحر أخذ بعقولهم وقرع أسماعهم بكلام لم يألفوه وأسلوب لم يستطيعوا أن يقلدوه وذلك لأنه تنزيل من رب العالمين.

وقد استغلت الحركة العلمية في العصر الحديث هذا الأثر النفسي للقرآن واستفادت منه في علاج هؤلاء الناس المرهفي الإحساس الذين يتأثرون بالكلمة وجمالها وعذوبتها.

لذلك بدأت تظهر في العصر الحديث اتجاهات بين بعض علماء النفس تنادي بأهمية التربية الدينية في متابعة الصحة النفسية وفي علاج الأمراض النفسية، وترى أن في الإيمان بالله والاتصال بالقرآن قوة خارقة تمد الإنسان المتدين بطاقة روحية تجعله يتحمل مشاق الحياة وتجنبه القلق الذي يتعرض له كثير من الناس في عصرنا المادي، والذي يسبب كثيرًا من الضغط والتوتر الذي يجعله عرضة للإصابة بالأمراض النفسية التي قد تدفعه إلى الانتحار.

إن الإيمان النابع من الاتصال بكلام الله ووحيه له تأثير عظيم في نفس الإنسان يجعله يزيد من ثقته بنفسه ويزيد قدرته على الصبر وتحمل مشاق الحياة ويبعث على راحة البال بالطمأنينة والوقاية من الشعور بالقلق والصراع النفسي.

والعلاج يفيد عادة بعد حدوث الإصابة بالمرض النفسي أما الإيمان بالله إذا ما بث في نفس الإنسان منذ الصغر فإنه يكسبه مناعة من الإصابة بالأمراض النفسية.

وقد وصف القرآن ما يحدثه الإيمان من أمن وطمأنينة وراحة يجدها المؤمن في نفسه بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[2].

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

ويرتبط بهذا الإعجاز النفسي ما يتحقق للمؤمن من سكينة النفس وأمنها وطمأنينتها لأن إيمانه الصادق بالله يمده بالأمل والرجاء في عون الله ورعايته.

---

(١) الأنعام: ٨٢.

(٢) الرعد: ٢٨.

(٣) التغابن: ١١.

إن المؤمن بالله حقًّا لا يخاف من شيء في هذه الدنيا؛ فهو يعلم يقينًا أنه لا يمكن أن يصيبه أذى إلا بمشيئة الله ولا يمكن لإنسان أو لأية قوة أخرى أن تلحق به ضررًا أو تمنع عنه خيرًا إلا بإذن الله ومشيئته؛ ولذلك فالمؤمن الصادق الإيمان إنسان لا يمكن أن يتملكه الخوف أو القلق.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]

وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

إن القرآن الكريم قد استوعب كل ما يتصل بالإنسان وتكوينه ونظر إلى جوهره الكامن في أعماقه من حيث هو إنسان وخاطبه بكل الوسائل النفسية وغير النفسية ليصل إلى عقله وقلبه وروحه.

وبذلك يكون القرآن قد استخدم كل مقومات علم النفس الإنساني منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان وقبل أن يتحدد مفهوم هذا العلم بمصطلحاته ومفهومه في العصر الحديث ولهذا قال القرآن:

---

(١)البقرة: ٦١٢.

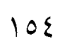
(٢) الأحقاف: ١٣.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[1] .

والهدف الأسمى من نزول القرآن أن يملك زمام النفس البشرية فإذا تملكها وسيطر عليها بث فيها كل البذور الصالحة التي يقصد إلى غرسها في قرارة هذه النفس، ويرد الناس إلى الله خالقهم ويصلهم به مباشرة، وهذا الرد إلى الخالق هو محور هذا الوجه النفسي للإعجاز، وهو محور العقيدة الإسلامية ومنه تتفرع كل تشريعات الإسلام وتوجيهاته، ومنه تسير الحياة الإنسانية على منهاجها المستقيم؛ لذلك كله كان هذا الرد آية من آيات إعجاز القرآن الكريم.

---

(١) ق:١٦.



الفصل الحادي عشر

إعجاز القرآن في هداية الكفار

قضية الإعجاز البياني بدأت تفرض وجودها على العرب منذ بعثة النبي ﷺ، فمنذ تلا رسول الله ﷺ في قومه ما تلقى من كلمات ربه أدركت قريش ما لهذا البيان القرآني من إعجاز لا يملك أي عربي يتذوق حلاوة العربية ويدرك أسرار فصاحتها وبلاغتها إلا أن يوقن بأنه ليس من قول البشر.

من هنا كان حرص زعماء الكفر من قريش على أن يحولوا بين العرب وبين سماع هذا القرآن. فكان إذا أَهَلَّ موسم الحج وجاءت وفود العرب للحج ترصدوا لها عند مداخل مكة، وأخذوا يحذرون الناس الاستماع إلى ما جاء به سيدنا محمد والإصغاء إليه من كلام قالوا عنه إنه سحر يفرق بين المرء وأبيه وأخيه، وبين المرء وزوجه وولده وعشيرته ويساوي بين السادة والعبيد، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾[1].

لقد كان عمر بن الخطاب شديد القسوة على المسلمين حتى قال فيه أحدهم: «**والله لن يسلم حتى يسلم حمار الخطاب**» وقد حدثوا أن "عمر بن الخطاب"

(١) فصلت: ٢٦.

خرج بالظهيرة متقلدًا سيفه يريد رسول الله ﷺ وجماعة من أصحابه، في بيت عند "الصفا" سمع أنهم مجتمعون فيه، فلقيه في الطريق من سأله:

ـ **أين تريد يا عمر ؟**

أجاب: **أريد محمدًا هذا الصابئ الذي فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها؛ فأقتله.**

قال له الرجل:

ـ **غرتك نفسك يا عمر! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟**

سأله عمر، وقد غاظه ما سمع: **أي أهل بيتي تعني؟**

فأخبره أن صِهْره وابن عمه " سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل " قد أسلم.

وكذلك أسلمت زوجته وهي أخت عمر " فاطمة بنت الخطاب".

فأخذ " عمر " طريقه إلي بيت صهره يستشيط غضبًا، يريد أن يقتله ويقتل زوجته فاطمة. فما كاد يدنو من الباب حتى سمع تلاوة خافتة لآيات من سورة طه، فدخل وهو يلح في طلب الصحيفة التي لمح أخته تُخْفيها عند دخوله....

وانطلق على الفور إلى البيت الذي اجتمع فيه المصطفى بأصحابه، فبايعه، وأعز الله الإسلام بعمر، وقد كان من أشد قريش عداوة للإسلام وحربًا للرسول، وقد كان إسلام عمر سببًا في الخير الكثير يقول عنه عبدالله بن مسعود: «**كان إسلام عمر فتحًا**

وكانت هجرته نصرًا وكانت إمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا».

وكذلك نتأمل كيف أسلم (سعد بن معاذ) سيد قبيلة (الخزرج) هو وابن أخيه (أسيد بن حضير) تروي كتب السيرة أن رسول الله ﷺ حينما كان في مكة جاءه وفد المدينة الذين بايعوه بيعة العقبة فأرسل معهم مبعوثَيْن يعلِّمانهم الإسلام والقرآن، وهما (مصعب بن عمير) و(عبدالله بن أم مكتوم) فلما وصلا المدينة أخذا يعلمان الناس القرآن فبلغ ذلك سعد بن معاذ سيد القبيلة فقال لابن أخيه أسيد بن حضير: ألا تذهب إلى هذين الرجلين اللذين جاءا يسفِّهان ضعفاءنا وتزجرهما عن هذا الصنيع؟ فسار إليهما أسيد فلما قال لهما: ما جاء بكما؛ جئتما تسفهان ضعفاءنا؟ ثم توعدهما وهددهما فقال: اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة؛ فقال له مصعب رضي الله عنه: أَوَ تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا قبلته وإن كرهته كففنا عنك ما تكره، فجلس أسيد وجعل مصعب يقرأ وهو يسمع؛ فما انتهى من مجلسه حتى أسلم ثم رجع إلى سعد فقال له: والله ما رأيت بالرجلين بأسًا، وأخفى أمامه إسلامه فغضب سعد وقام بنفسه ثائرًا غاضبًا فقال لهما: ما جاء بكما أجئتما تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا؛ فقال له مصعب: أوتجلس فتسمع فإن رضيت أمرًا قبلته منا وإن كرهته كففنا عنك ما تكره فقال: أنصفتما، فجعل مصعب يتلو القرآن عليه وسعد يستمع، يقول مصعب: والله لقد كان وجه سعد يشرق بالإيمان وهو يستمع القرآن فما انتهى

مصعب من القراءة حتى أعلن سيد القبيلة إيمانه ثم رجع فجمع قبيلته وقال لهم: كيف تعدونني فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، فقال لهم سعد: كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تُسلموا؛ فدخلوا جميعًا في الإسلام.

وعن تأثير القرآن في القلوب نذكر ما يتعلق بالنجاشي فعندما هاجر المسلمون إلى الحبشة بعد اضطهاد قومهم لهم وتعذيبهم إياهم عزّ على المشركين أن يجد المهاجرون مأمنًا لأنفسهم ودينهم فأرسلوا رجلين عاقلين إلى النجاشي ملك الحبشة ليقنعاه بأن يرد المسلمين إلى بلادهم وأقوامهم وهذان الرجلان هما عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة قبل أن يُسلما.

فاستفسر النجاشي عن هذا الأمر واستدعى المسلمين ليستمع إليهم ويحسم هذه القضية فقال النجاشي لجعفر بن أبي طالب- الذي كان هو المتكلم عن المسلمين- هل معك مما جاء به نبيكم عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ فقرأ عليه صدرًا من سورة مريم فبكى النجاشي حتى ابتلت لحيته وبكت أساقفته حتى بللوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال له النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة؛ انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون- يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه- فخرجا.

ومن ا لعجب أن القرآن لم يفرض إعجازه البيـاني مـن أول بعثـة النبـي عـلى هؤلاء الذين سبقوا إلى الإيمان به فحسب، بل فرضه كذلك على مـن ظلـوا عـلى كفرهم وشركهم، عنادًا وتمسكًا بدين الآباء، ودفاعًا عن أوضاع دينية واقتصادية واجتماعية لم يكونوا يريدون لها أن تتغير.

روى "ابن إسحاق" في السيرة: أن أبا سـفيان بـن حـرب وأبـا جهـل بـن هـشام المخزومي، والأخنس بن شريق خرجوا ذات ليلة متفرقين على غير موعـد إلى حيـث يستمعون من رسول الله ﷺ وهو يصلي ويتلو القرآن في بيته؛ فأخـذ كـل رجـل مـنهم مجلسًا يستمع فيه، ولا أحد منهم يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يـستمعون لـه حتـى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: «**لا تعودوا، فلـو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا**» ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة التالية عاد كل منهم إلى مجلسه لا يدري بمكان صاحبه.

فباتوا يستمعون للنبي ﷺ حتـى طلـع الفجـر فتفرقـوا وجمعهـم الطريـق فتلاومـوا، وانصرفوا على ألا يعودوا.

لكنهم عادوا فتسللوا في الليلة الثالثة وباتوا يستمعون إلى القرآن.

الفصل الثاني عشر

الإعجاز العددي

ينكر البعض ويستبعد من أوجه إعجاز القرآن الإعجاز العددي ولكن ما الغريب في أن يشتمل القرآن على نظام عددي مذهل كما اشتمل على غيره من وجوه الإعجاز المذهلة في جميع العلوم والثقافات؟! وكما أبدع الله تعالى الكون وخلقه على نظام محكم وتناسق عجيب مدهش فكذلك أبدع كتابه القرآن الكريم وأودع فيه أسرارًا لا تحصى ولا تُحصر وما الإعجاز العددي إلا مظهر من مظاهر هذا الإبداع الإلهي.

من ذلك: **الإعجاز العددي للرقم سبعة.**

يقول بعض الباحثين: نعلم جميعًا ما للرقم سبعة من قدسية في حياة كل مؤمن، فالسموات سبع، وكذلك الأرضين، وأيام الأسبوع سبعة، وطبقات الذرة سبع، وأبواب جهنم سبعة، والطواف حول الكعبة سبعة أشواط ومثله السعي بين الصفا والمروة؛ ولذلك فلابدَّ أن يكون لهذا الرقم بالذات ترتيب مذهل في القرآن يتميز به عن غيره من الأرقام. فإذا ما تأملنا القرآن وجدنا أن أول رقم ذُكر في القرآن هو الرقم سبعة، ألا يدل هذا على ترتيبٍ ما أو غاية محددة، وكأن الله تعالى يريد أن ينبهنا على أهمية هذا الرقم والبحث فيه وأننا سنرى نظامًا ما يقوم على الرقم سبعة إذا تأملنا هذا الرقم في القرآن لوجدنا أن

الرقم سبعة جاء لأول مرة في القرآن في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1]، وآخر مرة ورد فيها الرقم سبعة في القرآن نجدها في سورة النبأ في قوله تعالى: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾[2]، وإذا عددنا السور من سورة البقرة إلى سورة النبأ (أي من السورة التي ذُكر فيها الرقم سبعة لأول مرة وحتى السورة التي ذُكر فيها الرقم سبعة لآخر مرة) وجدنا بالضبط ٧٧ سورة، وهذا العدد من مضاعفات الرقم سبعة!! ألا يدل هذا على التناسق الدقيق؟! الرقم سبعة يُذكر لأول مرة في سورة البقرة وآخر مرة نجده في سورة النبأ، ويأتي عدد السور من سورة البقرة إلى سورة النبأ مساويًا بالتمام والكمال ٧٧ سورة، كيف يمكن أن يحدث هذا بالمصادفة؟، وإذا قمنا بعدِّ الآيات من الآية الأولى أي من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[3] إلى قوله تعالى: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾[4] سنجد أن المفاجأة الثانية هي أن عدد الآيات بالضبط ٥٦٤٩ آية، وهذا العدد من مضاعفات الرقم سبعة فهو يساوي ٧ × ٨٠٧، وسبحان الله، كيف يمكن للمصادفة أن تجعل عدد الآيات من مضاعفات الرقم سبعة

---

(١) البقرة: ٢٩.

(٢) النبأ: ١٢.

(٣) البقرة: ٢٩.

(٤) النبأ: ١٢.

وعدد السور من مضاعفات الرقم سبعة، ولا ننسى بأننا نبدأ العدَّ من الرقم سبعة (في الآية الأولى) وننتهي عند الرقم سبعة (في الآية الأخيرة)؟! ولكي نجد المزيد من التناسقات العددية القائمة على الرقم سبعة في هاتين الآيتين نقوم بعدِّ الآيات التي تسبق الآية التي ذُكر فيها الرقم سبعة للمرة الأولى وسنجد المفاجأة الثالثة فإننا عندما نحصي الآيات التي تسبق قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، سنجدها ٢٨ آية، والعدد ٢٨ من مضاعفات الرقم سبعة فهو يساوي ٧×٤، وإذا كان عدد الآيات التي تسبق هذه الآية الأولى هو من مضاعفات الرقم سبعة فلابدَّ أن نجد نظامًا مشابهًا في الآيات التي تلي الآية الأخيرة، وستكون المفاجأة الرابعة أننا عندما نقوم بعدِّ الآيات التي تلي قوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ حتى نهاية سورة النبأ سنجدها بالتمام والكمال ٢٨ آية، بنفس العدد السابق، وسبحان الله من جديد! كيف يمكن أن تأتي المصادفة بنظام بديع كهذا؟ الرقم سبعة يذكر للمرة الأولى في سورة البقرة ويذكر للمرة الأخيرة في سورة النبأ، ويأتي عدد السور من مضاعفات السبعة وعدد الآيات من مضاعفات السبعة وعدد الآيات التي تسبق الآية الأولى من مضاعفات السبعة وعدد الآيات التي تلي الآية الأخيرة من مضاعفات السبعة، أي إنسان عاقل يمكن أن يصدق بأن المصادفة هي التي فعلت هذا؟!

يتكرر الرقم سبعة في القرآن بنظام سباعي مذهل يدل على منظم عليم حكيم، فالله تعالى جعل في هذا النظام حجة ودليلًا على أن القرآن لو زاد أو نقص آية واحدة أو سورة واحدة لاختل هذا النظام المحكم، فسبحان الله!

إن معجزة الأرقام في القرآن الكريم موضوع مذهل حقًّا، وقد بدأ بعض العلماء والمفكرين المسلمين أمثال الأستاذ عبد الرزاق نوفل وغيره بدراستها منذ مدة قريبة، ولولا الآلات الإحصائية والعقول الإلكترونية ما أمكن دراسة وإنجاز هذا الإعجاز الرياضي الحسابي المذهل؛ فهذا الإعجاز مؤسس على أرقام، والأرقام تتكلم عن نفسها، فلا مجال هنا للمناقشة، كما لا يمكن إيجاد أي حجة لرفضها، وهي تثبت إثباتًا لا ريب فيه أن القرآن الكريم هو لا شك من عند الله، وأنه وصلنا سالمًا من أي تحريف أو زيادة أو نقصان؛ لأن نقص حرف واحد أو كلمة واحدة أو بالعكس يخل بكل النظام الحسابي للقرآن، وقد شاء الله تعالى أن تبقى معجزة الأرقام سرًّا حتى اكتشاف العقول الإلكترونية، وهذا ما يفسر الآية الكريمة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1].

وإليكم بعض ما اكتشف من الإعجاز العددي لبعض الكلمات الواردة في القرآن الكريم نقلًا عن كتاب الأستاذ عبد الرزاق نوفل:

الحياة تكررت ١٤٥ مرة.......... الموت تكررت ١٤٥ مرة

---

(١) فصلت: ٥٣.

الصالحات تكررت ١٦٧ مرة...... السيئات تكررت ١٦٧مرة

الدنيا تكررت ١١٥مرة........الآخرة تكررت ١١٥مرة

الملائكة تكررت ٨٨ مرة.........الشيطان تكررت ٨٨ مرة

المحبة تكررت ٨٣ مرة.......... الطاعة تكررت ٨٣ مرة

الهدى تكررت ٧٩ مرة..........الرحمة تكررت ٧٩ مرة

الشدة تكررت ١٠٢ مرة.........الصبر تكررت ١٠٢ مرة

الجهر تكررت ١٦مرة.......... العلانية تكررت ١٦مرة

إبليس تكررت ١١ مرة........ الاستعاذة بالله تكررت ١١مرة

الرحمن تكررت ٥٧مرة....الرحيم تكرر ١١٤ مرة أي الضعف

الجزاء تكررت ١١٧مرة.....المغفرة تكرر٢٣٤مرة أي الضعف

الفجار تكررت ٣مرات..........الأبرار تكررت ٦ مرات أي الضعف

العسر تكررت ١٢مرة......اليسر تكرر٣٦مرة أي ثلاثة أمثال

قل تكررت ٣٣٢ مرة.............. قالوا تكررت ٣٣٢مرة

لو تدبرنا عدد حروف لفظ الدنيا لوجدناها ستة حروف، وأيضًا حروف لفظ الحياة هي ستة حروف، وعناصر الدنيا هي السموات وما فيها، والأرض وما عليها، فهذه تشير إليها وتعتمد عليها، وقد قرر القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى قد خلقنا في ستة أيام أي ست مراحل، وذلك بمثل النص الشريف:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[1].

أي الدنيا- ولفظها يتكون من ستة حروف- خلقت في ست مراحل، والإنسان- وحروفه سبعة- خلق في سبع مراحل.

والعدد سبعة سبق الحديث عن بعض ما ورد فيه في القرآن الكريم، ويمكن أن نضيف إلى ما قلناه عنه أن الإنسان- ولفظه يتكون من سبعة حروف وخُلق على سبع مراحل- يتساوى معه في عدد الحروف ألفاظ القرآن.. والفرقان... والإنجيل.. والتوراة.. فكل منها يتكون من سبعة حروف، وأيضًا صحف موسى فيه سبعة حروف، وأبو الأنبياء إبراهيم يتكون أيضًا من سبعة حروف.. فهذه إشارة عددية ومتوازنة حسابية إلى أن هذه الرسالات والكتب إنما نزلت للإنسان لمختلف مراحله وشتى أحواله، وعلى النقيض نجد الشيطان يتكون لفظه من سبعة حروف، وذلك تأكيد لعداوته للإنسان في كل مرة ومختلف حالاته، وأنه يحاول أن يصده تمامًا وكاملًا عن الهداية التي أنزلها الله للإنسان كاملة وشاملة بنبوية إبراهيم وصحف موسى والتوراة والإنجيل والفرقان وهو القرآن.

---

(١) المؤمنون: ١٢-١٤.

الفصل الثالث عشر

الإعجاز العلمي

الطير في القرآن

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾[2]. هاتان هما الآيتان اللتان تطلبان منا النظر إلى خلق الطير في القرآن الكريم، ويلاحظ أنهما ابتدأتا بقوله تعالى: (أولم يروا إلى الطير). فاستعمل فيهما التنبيه على النظر إلى الطير بكلمة (يروا) وكأن في ذلك إشارة إلى أن مجرد إلقاء نظرة إلى الطير يظهر لنا آثار قدرة الخالق جل جلاله؛ فالطيور في جمال أشكالها وتناسق ألوانها صنعة دالة على المصور سبحانه وتعالى الذي أبدع صورها؛ لأن رؤية أشكالها الجميلة والألوان التي تجمل ريشها وأجسامها تطرح على الناظر سؤالًا هو: من المصور الذي صور هذه الأشكال، وأبدع هذه الصور، ونسق بين هذه الألوان ؟ فيكون الجواب الوحيد على ذلك

---

(١) النحل آية: ٧٩.

(٢) الملك آية: ١٩.

التساؤل هو: الله الخالق البارئ المصور جل جلاله، فإذا انتقلنا من مجرد النظر إلى التأمل والتفكير في خلقها وجدنا المزيد من الإبداع الذي يدل على حكمة العليم الخبير.

وتتمكن الطيور من الطيران لأشياء عديدة في تكوينها أهمها شكل الجسم الانسيابي، والبسطة في الأجنحة المزودة بالريش، والعظام المجوفة الخفيفة، والأكياس الهوائية بين الأحشاء، وهي متعلقة بالرئتين، وتمتلئ بالهواء عند الطيران فيخف وزن الجسم، والصف: وهو أن يبسط الطائر جناحيه دون أن يحركهما.

وفي طيران الطيور آيات معجزات لم نفهم بعضها إلا بعد تقدم علوم الطيران ونظريات الحركة (الديناميكا) الهوائية. ولكن أكثر ما يثير العجب هو أن يمضي الطائر في الجو بجناحين ساكنين حتى يغيب عن الأبصار، وقد كشف العلم أن الطيور الصافة تركب متن التيارات الهوائية المساعدة التي تنشأ إما من اصطدام الهواء بعائق ما أومن ارتفاع أعمدة من الهواء الساخن، فإذا ما كانت الريح لطيفة ظلت الأعمدة قائمة وصفَّت الطيور في أشكال حلزونية أما إذا اشتدت انقلبت الأعمدة أفقيًّا فتصف الطيور في خطوط مستقيمة بعيدة المدى.

تتمتع الطيور عامة بخصائص منها خفة الوزن، ومتانة البناء، وعلو كفاءة القلب، ودورة الدم، وجهاز التنفس، ودقة اتزانها، وانسياب أجسامها، وهي خصائص أودعها فيها الله تعالى لتحفظها في الهواء حين تبسط جناحيها أو تقبضهما. إلا أن الطيور الصافة تتميز عن سائر الطيور باختصار حجم عضلات

صدورها مع قوة الأوتار، والأربطة المتصلة بأجنحتها حتى تستطيع بسطها فترات طويلة بدون جهد كبير. أما الطيور صغار الحجم التي تعتمد في طيرانها على الرفيف فإنها تضرب بجناحيها إلى أسفل وإلى الأمام لتوفير الدفع والرفع اللازمين لطيرانها، ثم تقبض أجنحتها، ولكنها تظل طائرة بقوة اندفاعها المكتسبة. وهكذا يتعاون البناء التشريحي والتكويني الهندسي للطيور بكافة أنواعها على طيرانها، وحفظ توازنها وتوجيه أجسامها أثناء الطيران.

والجبال أوتادًا

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[1]، تشير الآية إلى أن الجبال أوتاد للأرض، والوتد يكون منه جزء ظاهر على سطح الأرض، ومعظمه مدفون فيها، ووظيفته التثبيت لغيره، بينما نرى علماء الجغرافيا والجيولوجيا يعرِّفون الجبل بأنه: كتلة من الأرض تبرز فوق ما يحيط بها، وهو أعلى من التل. ويقول د. زغلول النجار: إن جميع التعريفات الحالية للجبال تنحصر في الشكل الخارجي لهذه التضاريس دون أدنى إشارة لامتداداتها تحت السطح، والتي ثبت أخيرًا أنها تزيد على الارتفاع الظاهر بعدة مرات. ثم يقول: ولم تكتشف هذه الحقيقة إلا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر عندما تقدم السير جورج إيري بنظرية مفادها أن القشرة الأرضية لا تمثل أساسًا مناسبًا

---

(١) النبأ: ٦-٧.

للجبال التي تعلوها، وافترض أن القشرة الأرضية وما عليها من جبال لا تمثل إلا جزءًا طافيًا على بحر من الصخور الكثيفة المرنة، وبالتالي فلا بد أن يكون للجبال جذور ممتدة داخل تلك المنطقة العالية الكثافة لضمان ثباتها واستقرارها. وقد أصبحت نظرية إيري حقيقة ملموسة مع تقدم المعرفة بتركيب الأرض الداخلي عن طريق القياسات الزلزالية، فقد أصبح معلومًا على وجه القطع أن للجبال جذورًا مغروسة في الأعماق، ويمكن أن تصل إلى ما يعادل ١٥ مرة من ارتفاعاتها فوق سطح الأرض، وأن للجبال دورًا كبيرًا في إيقاف الحركة الأفقية الفجائية لصفائح طبقة الأرض الصخرية.

ويعرف الدكتور زغلول الجبال في ضوء المعلومات الحديثة فيقول: إن الجبال ما هي إلا قمم لكتل عظيمة من الصخور تطفو في طبقة أكثر كثافة كما تطفو جبال الجليد في الماء.

ولقد وصف القرآن الجبال شكلًا ووظيفة فقال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[1]، وقال أيضًا: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[2] والجبال أوتاد بالنسبة لسطح الأرض، فكما يختفي معظم الوتد في الأرض للتثبيت، كذلك

---

(١) النحل: ١٥.

(٢) الأنبياء: ٣١.

يختفي معظم الجبل في الأرض لتثبيت قشرة الأرض، وكما تثبت السفن بمراسيها التي تغوص في ماء سائل فكذلك تثبت قشرة الأرض بمراسيها الجبلية التي تمتد جذورها في طبقة لزجة نصف سائلة تطفو عليها القشرة الأرضية.

ولقد تنبه المفسرون رحمهم الله إلى هذه المعاني فأوردوها في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾، وإليك أمثلة من ذلك:

١- قال ابن الجوزي: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ للأرض لئلا تميد[1].

٢- وقال الزمخشري ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي أرسيناها بالجبال كما يرسى البيت بالأوتاد.

٣- وقال أبو حيان: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي ثبتنا الأرض بالجبال كما يثبت البيت بالأوتاد.

٤- وقال الشوكاني: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ الأوتاد جمع وتد أي جعلنا الجبال أوتادًا للأرض لتسكن ولا تتحرك كما يرسى البيت بالأوتاد.

وعندما خلق الله القارات بدأت في شكل قشرة صلبة رقيقة تطفو على مادة الصهير الصخري، فأخذت تهتز وتضطرب، فخلق الله الجبال البركانية التي كانت تخرج من تحت تلك القشرة، فترمي بالصخور خارج سطح الأرض، ثم تعود منجذبةً إلى الأرض وتتراكم بعضها فوق بعض مكونة الجبال، وتضغط بأثقالها المتراكمة على الطبقة اللزجة فتغرس فيها جذرًا من مادة الجبل؛ الذي يكون سببًا لثبات القشرة الأرضية واتزانها.

---

(١) تميد: تهتز وتضطرب.

وفي قوله تعالى:﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ ﴾[1] إشارة إلى الطريقة التي تكونت بها الجبال البركانية بإلقاء مادتها من باطن الأرض إلى الأعلى ثم عودتها لتستقر على سطح الأرض. ويكشف حديث الرسول هذه الكيفية؛ فقد روى أنس بن مالك عن النبي أنه قال: «**لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال فعاد بها عليها.. الحديث** »[2]، فتأمل في قول النبي المبيِّن لكيفية خلق الجبال: "فعاد بها عليها"، أي أن خلقها كان بخروجها من الأرض وعودتها عليها.

إن من ينظر إلى الجبال على سطح الأرض لا يرى لها شكلًا يشبه الوتد أو المرساة، وإنما يراها كتلًا بارزة ترتفع فوق سطح الأرض- كما عرفها الجغرافيون وعلماء الجيولوجيا- ولا يمكن لأحد أن يعرف شكلها الوتدي أو الذي يشبه المرساة إلا إذا عرف جزءها الغائر في الصهير البركاني في منطقة الوشاح، وكان من المستحيل لأحد من البشر أن يتصور شيئًا من ذلك حتى ظهرت نظرية سيرجورج إيري عام ١٨٥٥م؛ فمن أخبر محمدًا بهذه الحقيقة الغائبة في باطن القشرة الأرضية وما تحتها على أعماق بعيدة تصل إلى عشرات الكيلومترات قبل معرفة الناس لها بثلاثة عشر قرنًا ؟ ومن أخبر محمدًا بوظيفة الجبال، وأنها تقوم بعمل الأوتاد والمراسي، وهي الحقيقة التي لم يعرفها الإنسان إلا بعد عام

---

(١) لقمان: ١٠.

(٢) رواه الترمذي.

١٩٦٠م ؟ وهل شهد الرسول خلق الأرض وهي تميد ؟ وتكوين الجبال البركانية عن طريق الإلقاء من باطن الأرض وإعادتها عليها لتستقر الأرض ؟ ألا يكفي ذلك دليلًا على أن هذا العلم وحي أنزله الله على رسوله النبي الأمي في الأمة الأمية، في العصر الذي كانت تغلب عليه الخرافة والأسطورة ؟ إن ذلك يدل بوضوح على أن مصدر هذا القرآن هو خالق الأرض والجبال الله تعالى.

نقص الأوكسجين

منذ صعود الإنسان إلى الفضاء واكتشاف الطيران بانت ظاهرة نقص الأوكسجين في طبقات الجو العليا؛ فكلما ارتفع الإنسان في أجواء السماء أدركته هذه الظاهرة وشعر بضيق الصدر وصعوبة التنفس حتى ليكاد يشعر بالاختناق، وهذه الظاهرة العلمية أشار إليها القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾[1].

وقد فسرها العلماء قديمًا حسب مفاهيمهم التي تتفق مع زمانهم فقالوا: (كأنما يصعد في السماء) أي كمن يحاول الصعود إلى السماء وهو ليس بمستطيع أو كمن يحاول عمل المستحيل، وقد جاء العصر الحديث فأظهر معجزة القرآن التي تؤيد صدق نبوة محمد ﷺ.

---

(١) الأنعام: ١٢٥.

الزوجية في النباتات

من أبلغ قدرات الله أن تجد التربة واحدة والماء واحد والثمار مختلفة الطعم واللون والرائحة؛ قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1]، يشير القرآن الكريم إلى حقيقة علمية لم يعلمها العالم إلا حديثًا؛ فقد ثبت حديثًا أنه لا يتفق نباتان من نوع واحد في صفاتهما كل الاتفاق، وأن أعضاء التأنيث والتذكير لم تعرف على وجه القطع واليقين إلا مؤخرًا.

إن الله جعل من كل الثمرات زوجين اثنين، ولولا الزوجان الاثنان ما كان هناك إخصاب ولا ثمار؛ فالأصل في الإثمار هو وجود الزوجين، ومن النبات من يحمل أعضاء التذكير على نبات مذكر وأعضاء التأنيث على نبات مؤنث وتسمى (النباتات ثنائية المسكن) وذلك مثل النخل، ومن النبات من يحمل كلًّا من أعضاء التذكير والتأنيث على نفس النبات (أحادي المسكن) كالصنوبر، ووجود الأعضاء المذكرة مع المؤنثة يجعل التكاثر هنا بين النبات ونفسه وهذا

---

(١) الرعد: ٣-٤.

يتسبب في إضعاف النوع وعزل الصفات الوراثية السيئة وتجمعها في نبات واحد، وهنا تجد عجبًا وإعجازًا فنبات الصنوبر يحمل حبوب اللقاح في مخاريط مذكرة، والبويضات توجد في مخاريط مؤنثة، وحتى يكون هنا تلقيح خلطي ولا يحدث إخصاب ذاتي من نفس الشجرة نجد أن المخاريط المؤنثة توجد في أعلى الشجرة، والمخاريط المذكرة أسفل منها حتى إذا خرجت حبوب اللقاح وحملها الهواء وجذبتها الجاذبية الأرضية فإنها لا تسقط على المخاريط المؤنثة لنفس الشجرة ويحملها الهواء إلى شجرة مجاورة، وهكذا تكون هناك فرصة كبيرة للتلقيح الخلطي بالهواء بين شجرة وأخرى، ولو كان الوضع معكوسًا بحيث تكون المخاريط المؤنثة أسفل والمذكرة أعلى لسقطت حبوب اللقاح من المخاريط المذكرة على البويضات لنفس الشجرة وكانت نسبة التلقيح الخلطي قليلة، فتضعف الصفات الوراثية للنوع والجنس، وكأن هذه الشجرة تطبق القاعدة الشرعية الإسلامية التي تقول «**تباعدوا تصحوا**» هل يصبح هناك أدنى شك بأن المبدع والخالق بصير عليم خبير، وهناك بعض النباتات مثل الذرة تحمل أعضاء التذكير مع أعضاء التأنيث في نفس الزهرة (خنثى) وحتى تكون هناك فرصة للتلقيح الخلطي نجد عجبًا أن أعضاء التذكير أقصر من أعضاء التأنيث لنفس السبب السابق أو نجد أن وقت إنضاج الأعضاء المؤنثة يختلف عن وقت نضوج الأعضاء المذكرة، إنها عظمة الخالق؛ تباعد زمني يعطي فرصة للتلقيح الخلطي وحفظ النوع؟ هل رأيتم قدرة مثل هذه القدرة ؟ تنتقل الآيات بنا إلى علم البيئة

النباتية فتقرر أن في الأرض قطعًا متجاورات وجنات وزروعًا كلها تُروى بماء واحد؛ هذه تُخرج زروعها طيبة وأخرى رديئة سبخة لا تخرج إلا الخبث، فالتربة أحيانًا تكون واحدة والنبات واحد والعناصر الغذائية واحدة والظروف الخارجية (ضوء ـ حرارة ـ أوكسجين ـ رياح ـ رطوبة) كلها واحدة ولكن هذا طعمه مقبول محبب للنفس وذاك كريه تعافه النفس، والآن يمكن بعملية التطعيم أن تحمل شجرة واحدة بأصل واحد تحمل برتقالًا حلو الطعم ونارنج ممقوت الطعم؛ فالشجرة واحدة والماء واحد وممرات الغذاء ومساراتها واحدة، وهذا برتقال، وذاك نارنج، وآخر ليمون، أليست هذه من قدرة الله الذي قال لنا: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1].

تحريم الوطء في الحيض

قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[2]، جاء في صحيح الإمام مسلم: «**إن اليهود كانت إذا حاضت المرأة أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يجامعوها؛ فسأل الصحابة رسول الله ﷺ: ما يصنعون؛ فقال: «اصنعوا كل شيء إلا**

---

(١) الرعد: ٤.

(٢) البقرة: ٢٢٢.

النكاح»[1]، ففي الآية دلالة قاطعة على تحريم الوطء في الحيض لما فيه من الأضرار الجسيمة التي كشف عنها الطب الحديث مما يدل على إعجاز القرآن الكريم، ومن أذى المحيض الذي أشارت إليه الآية ما يلي:

بفحص دم الحيض تحت المجهر نجد بالإضافة إلى كرات الدم الحمراء والبيضاء قطعًا من الغشاء المبطن للرحم، ويكون الرحم متقرحًا نتيجة لذلك؛ فهو معرض للعدوى البكتيرية. ومن المعلوم طبيًّا أن الدم هو أفضل بيئة لتكاثر الميكروبات ونموها، وتقل مقاومة الرحم للميكروبات التي تغزوه نتيجة لذلك، ويصبح دخول الميكروبات الموجودة على سطح قضيب الذكر يشكل خطرًا بالغًا على الرحم، والأدهى من ذلك أن مقاومة المهبل لغزو البكتيريا تكون في أدنى مستواها أثناء الحيض؛ إذ يقل إفراز المهبل الحامض الذي يقتل الميكروبات ويصبح الإفراز أقل حموضة.... كما تقل المواد المطهرة الموجودة بالمهبل أثناء الحيض إلى أدنى مستوى لها... ليس ذلك فحسب ولكن جدار المهبل الذي يتألف من عدة طبقات يقل أثناء الحيض إلى أدنى مستوى لها.

يمتد الالتهاب إلى قناة الحيض إلى أدنى مستوى لها.

يمتد الالتهاب إلى قناة مجرى البول فالكلى.

يصاحب الحيض آلام شديدة.

---

(١) رواه مسلم.

تصاب كثير من النساء أثناء الحيض بحالة كآبة وضيق كما أن حالتها العقلية والفكرية تكون في أدنى درجاتها أثناء الحيض لذلك نهى رسول الله عن تطليق النساء أثناء الحيض.

تصاب بعض النساء بصداع نصفي (الشقيقة) قرب بداية الحيض وآلام شديدة تقل الرغبة الجنسية لدى المرأة أثناء الحيض .

يسبب الحيض فقر دم للمرأة.

تزيد شراسة الميكروبات أثناء الحيض في دم الحيض وخاصة ميكروبات السَّيَلان.

تصاب الغدد بالتغير فتقل إفرازاتها- يبطئ النبض وينخفض ضغط الدم فيسبب الشعور بالدوخة والضعف والكسل.

لا يتم الحمل أثناء الحيض.

لا يقتصر الأذى على الحائض بل ينتقل الأذى إلى الرجل الذي وطئها أيضًا، وتنتقل الميكروبات من قناة الرحم إلى مجرى البول والبروستاتا والمثانة، والتهاب البروستاتا سرعان ما يزمن لكثرة قنواتها الضيقة الملتفة والتي نادرًا ما يتمكن الدواء بكمية كافية من قتل الميكروبات المختفية في تلافيفها... فإذا ما أزمن التهاب البروستاتا فإن الميكروبات سرعان ما تغزو بقية الجهاز البولي التناسلي

فتنتقل إلى الحالبين ثم إلى الكلى... وهو العذاب المستمر حتى نهاية الأجل. وقد ينتقل الميكروب من البروستاتا إلى الحويصلات المنوية فالحبل المنوي فالبربخ فالخصيتين... وقد يسبب ذلك عقمًا بسبب انسداد قناة المني.

كروية الأرض

قال سبحانه: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾[1]، يُغْشي: يستر. يطلبه حثيثًا تعني يلاحقه سريعًا دون توقف. لنتصور هذا....النهار كائن من ضياء منبعث من الشمس يملأ الفضاء والجو في كل الجهات، والليل كائن آخر لا ضوء فيه إلا بصيص الشهب يلاحق النهار بسرعة والنهار يلاحقه؛ هذا يجري وذاك يطلبه دون توقف. لكن إلى أين ؟ وكيف.؟ هل يجريان في طريق مستقيمة طرفها اللانهاية ؟ لو كان ذلك لما مر على الأرض إلا نهار واحد لحقه ليل وانتهى الأمر؛ لكننا نراهما متعاقبين، فالنهار يطلع كل يوم من نفس الجهة التي طلع منها في اليوم السابق وتسير شمسه لتغيب في نفس الجهة التي غربت فيها بالأمس. وهكذا العتمة من الشرق وتغور في الغرب. ثم يتكرر المشهد ويتكرر إلى ما شاء الله. لنتصور الحركة في قوله تعالى: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ من خلال هذا الواقع فنرى أن الطريق دائرية لا لبس فيها؛ لندرك هذا بسهولة يجب علينا أن نتفهم جيدًا الأسلوب التصويري في القرآن؛ حينئذ سيظهر لنا بوضوح من خلال الآية

(١) الأعراف: ٥٤.

صورة طريق دائرية حول الأرض يجري عليها الليل والنهار، ذاك يغشى هذا وهذا يغشى ذاك. وقال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾[1]، الآية واضحة كل الوضوح: يكور الليل على النهار فيخفيه ويكون الليل، ويكور النهار على الليل فيخفيه ويكون النهار، وبين تكورهما على بعضهما نرى جسمًا كرويًّا يتدحرج بينهما فيجمعهما يكوران على بعضهما، هذا الجسم هو الأرض.لنتصور أننا في منطقة النهار، وبعد ساعات سيغشى الليل هذه المنطقة، لكنه لا يغشاها بشكل عادي بل يكور تكويرًا، أي ينحني بشكل كروي، ومن البديهي أن المنطقة يجب أن تكون كروية ليمكن فهم الكلام.

كانت الإنسانية تجهل هذا فكيف عرفه محمد ﷺ وأقره ؟!. وقال جل وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾[2]، ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾[3]، كيف تكون الأرض ممدودة ؟ وما معنى ذلك ؟. معنى ذلك أننا مهما سرنا فيها فستبقى ممدودة أمامنا، لن تنتهي فيها إلى حاجز يحول دون ما وراءه؛ فَلْنَسر في أي اتجاه نريد، وَلْتَسِر الليالي والشهور والسنين والعمر كله، وسنبقى نسير وستبقى ممدودة، ولا يوجد شكل من الأشكال الهندسية تتحقق

---

(١) الزمر: ٥.

(٢) الرعد: ٣.

(٣) الحجر: ١٩.

فيه هذه الحالة إلا الشكل الكروي، فحيثما سرت عليه يبقى ممدودًا أمامك، وأي شكل آخر لا يمكن أن يحقق معنى هذه الآية، ولقد أشار كثير من المفسرين والفقهاء المسلمين إلى كروية الأرض مما فهموه من كتاب الله عز وجل؛ من ذلك:

أشار ابن قيم الجوزية في كتابه: «**التبيان في أقسام القرآن**» أن الأرض كروية، وأشار كذلك الإمام الفخر الرازي في تفسير «**مفاتيح الغيب**» إلى كروية الأرض؛ قال: "إن مد الأرض هو بسطها إلى ما لا يدرك منتهاه، وقد جعل الله حجم الأرض عظيمًا لا يقع البصر على منتهاه، والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح المستوي الامتداد "، ولم يشاهد الإنسان الأرض في شكلها الكروي وهي تسبح في الفضاء السماوي إلا عندما أطلق الروس القمر الصناعي الأول "سبوتنيك" في مداره حول الأرض في أكتوبر ١٩٥٧م واستطاع العلماء الحصول على صور جيدة لكوكب الأرض بواسطة آلات التصوير التي كانت مثبتة في القمر الصناعي، وفي عام ١٩٦٦م هبط القمر الصناعي " لونيك ٩" بأجهزته المتطورة على سطح القمر،وأرسل لمحطات الاستقبال على الأرض صورًا عن كوكب الأرض؛ فكيف عرف محمد ﷺ ذلك ؟!



الفهرس

المقدمة ٥

الباب الأول: حول القرآن ٩

الفصل الأول: القرآن...١١

تعريف القرآن..١١

تأثير القرآن...١١

جمع القرآن ١٣

نبذة مختصرة عن القراءات الصحيحة ١٥

نبذة عن صفة القرآن ١٥

إثبات أن القرآن كلام الله ١٧

الفصل الثاني: خصائص القرآن ٢٥

الفصل الثالث: شبه حول القرآن والرد عليها......................................٣٥

تمهيد...٣٥

القرآن كتاب هداية وإعجاز ٣٦

الشبهة الأولى: أن النبي ﷺ كان مصابًا بـ(الهستريا).............................٤٠

الشبهة الثانية: أن القرآن جاء به محمد ﷺ من عند نفسه لتميزه بين قومه ٤٢

الشبهة الثالثة: ما يتعلق بجمع القرآن..٤٦

الباب الثاني: حول الإعجاز...... **Error! Bookmark not defined.**

معنى الإعجاز والمعجزة ٥٣
أسلوب القرآن في التحدي.. ٥٥
أنواع التحدي ٥٦
عجز العرب عن المعارضة ٥٨
محاولات فاشلة للمعارضة ٥٩
شروط المعجزة.. ٦٧
توضيح وشرح شروط المعجزة ٦٨
بِمَ كان إعجاز القرآن؟ ٦٩
الباب الثالث: أوجه الإعجاز ٧١
الفصل الأول : الإعجاز بالصرفة ٧٣
الفصل الثاني: الإعجازاللفظي ٧٧
الفصل الثالث: الإعجاز في إتيان الحرف الواحد في موضعه ٨٣
الفصل الرابع: الإعجاز في نغم القرآن ٩١
الفصل الخامس: الإعجاز الفني التصويري.. ٩٩
الفصل السادس: الإعجاز التشريعي ١٠٩
دعائم الشريعة الإسلامية.. ١١١
أهم المبادئ التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ١١٣
الفصل السابع: إعجاز القرآن في وفائه بحاجات البشر ١٢٥

الفصل الثامن : الإعجاز الغيبي ١٣٧
وعيد الله للوليد بن المغيرة بنار جهنم ١٣٧
الحرب بين الفرس والروم ١٤٠
الفصل التاسع: الإعجاز التاريخي ١٤٣
قوم سبأ وسَيْل العَرِم ١٤٣
الفصل العاشر: الإعجاز النفسي ١٤٩
الفصل الحادي عشر: إعجاز القرآن في هداية الكفار ١٥٥
الفصل الثاني عشر: الإعجاز العددي ١٦٠
الفصل الثالث عشر: الإعجاز العلمي ١٦٧
الطير في القرآن ١٦٧
والجبال أوتادًا ١٦٩
نقص الأوكسجين ١٧٣
تحريم الوطء في الحيض ١٧٦
كروية الأرض ١٧٩
الفهرس ١٨٣